الفصل الأول

سيرته

نشأته :

أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، المعروف بابن الزيات، جاءه هذا اللقب من جده الذي كان تاجراً يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد، وجده هذا هو أبان ابن حمزة من أهل قرية الدسكرة مقابل جُبَّل من عمل بغداد، وأسرة ابن الزيات عربية الأصل، وكان أبوه عبد الملك تاجراً من وجوه تجار الكرخ في بغداد، وكان ثرياً موسراً، وكان يتولى تزويد بلاط المأمون بما يلزمه من الفساطيط والجمازات وما تحتاجه مطابخ القصر من أشياء، ومعنى هذا أنه كان من كبار تجار بغداد المرموقين، وقد نشأ ابنه محمد في هذا العز الموروث القائم على تجارة الزيت في بغداد بجانب الكرخ.

لم نجد في المصادر تحديداً لسنة ولادته، ولكننا نستطيع أن نرجح السنة ١٧٣هـ/٧٨٩ م تاريخاً لولادته، استدلالاً بما قيل من أنه تولى الوزارة للمعتصم سنة ٢٢٠هـ/٨٣٧ م، وكانت سنه آنذاك سبعاً وأربعين سنة، وبقي وزيراً للمعتصم ثم الواثق بعده، ثم عدة أيام في زمن المتوكل الذي نكبه ونكل به سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧ م، على ما سيجيء.

تزوج ابن الزيات بأكثر من امرأة، إحداهن توفيت واسمها (سكرانة) أم عمر التي بكاها وذكر يتم ابنه الطفل، وقد رزق بأولادٍ وَرَدَ ذكر بعضهم في كتب الأدب والتاريخ، وكان بعضهم يروي شعر أبيه وأخباره وهو هارون، وكذلك عبيد الله، ومن أولاده سليمان وعبد الله، وقد قبض المتوكل على سليمان وعبد الله حين قبض على أبيهما وسجنا، ثم سلمت إليهما جثة أبيهما الذي قتل تحت التعذيب وبالتنور، أما ابنه عمر فقد ماتت أمه وهو صغير ابن ثماني سنوات.

كان ابن الزيات منذ صغره ميالاً إلى العلم والأدب، ولا نعلم عن ثقافته وهو صغير تحقيقاً وتفصيلاً، إلا أن الدلائل تشير إلى شغفه بالأدب وتفضيله على التجارة، فقد كان

أبوه يريده تاجراً كأسرته، وكان هو يطلب الكتابة وملازمة الدواوين ومجالسة الكتاب، وكان من كتاب عصره آنذاك الجاحظ، وعمرو بن مسعدة، وأحمد بن يوسف، وسهل بن هارون، وغيرهم، وعلي الرغم من إلحاح أبيه على أن يتعاطى التجارة، إلا أنه كان شديد الحرص على طلب العلم والكتابة، ومما قاله أبوه عبد الملك يخاطبه: «والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك وليضرنَّك، لأنك تدع عاجل المنفعة وما أنت فيه مكفي، ولك ولأبيك مال وجاه، وتطلب الآجل الذي لا تدري ما تكون فيه»، فقال: «والله لتعلمنَّ أينا ينتفع بما هو فيه، أأنا أم أنت؟» ثم شخص إلى الفضل بن سهل، بـ(فم الصلح)، فامتدحه بقصيدة فأعطاه عشرة آلاف درهم، فعاد بها إلى أبيه، فقال له أبوه: «لا ألومك بعدها على ما أنت فيه»، وفي القصيدة أبيات يقول فيها واصفاً حاله: (١)

إني شَعَرْتُ فلم أمدحْ سواكَ ولم ... أُعْمِلْ إلى غيرِكَ الإدلاجَ والبُكَرا

ما كان ذلك إلاّ أنني رجلٌ ... لا أقْرَبُ الوِرْدَ حتى أعرفَ الصَّدَرا

لم أمتَدِحْكَ رجاءَ المالِ أطلبُهُ ... لكنْ لِتُلْبِسَني التحجيلَ والغُررا

وكان ابن الزيات قد تثقف ثقافة عربية واسعة، فبرع في اللغة والنحو والشعر وعلوم الشريعة وغيرها، وأخذ عن كبار الكتَّاب واللغويين والنحويين، فبرع ونبغ في علوم عصره، ويكفي أن يكون أبو عثمان المازني يجل ابن الزيات ويثق بعلمه، ومن دلائل ذلك ما رواه ميمون بن هارون الكاتب: «أن أبا عثمان المازني لما قدم بغداد أيام المعتصم، كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في علم النحو، فإذا اختلفوا فيما يقع فيه شك، يقول لهم المازني: ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب ـ يعني محمد بن عبد الملك ـ اسألوه، واعرفوا جوابه، فيفعلون، فيصدر الجواب من قبله بالصواب الذي يرتضيه المازني، ويقفهم عليه»(٢).

وزارته:

لقد أعد ابن الزيات نفسه ليكون كاتباً من كتَّاب الدولة، وكان ذكياً فطناً طموحاً، وكان أول صلته بقصر الخلافة في أيام المعتصم، ويبدو أنه تسلم وظيفة القهرمان

---

(١) الديوان ق٦١ (ق = قصيدة أو قطعة أو أبيات في هذا الديوان).

(٢) البغدادي: تاريخ بغداد ٣/ ١٤٤.

والإشراف على المطبخ، وكان يؤهل نفسه لمنصب الكتابة، ولذلك كان يلبس زي الكتَّاب من لبس السواد وحمل السيف، يقول الطبري: «كان محمد بن عبد الملك الزيات يتولى للمعتصم ما كان يتولاه أبوه للمأمون من عمل المشمش والفساطيط وآلة الجمازات[1]، ويكتب على ذلك: مما جرى على يدي محمد بن عبد الملك، وكان يلبس إذا حضر الدار دراعة سوداء، وسيفاً بحمائل، فقال له الفضل بن مروان: إنما أنت تاجر، فما لك وللسواد وللسيف؟، فترك محمد ذلك»[2].

ولكن ابن الزيات كان يعد نفسه ليكون كاتباً من كتَّاب السلطان، وكل الدلائل تشير إلى أنه كان مؤهلاً لهذا المنصب، فعلمه وذكاؤه وشخصيته وحزمه، كل ذلك كان يعده ليس للكتابة وحسب بل للوزارة أيضاً، ولكن الكتابة أولاً، ثم الوزارة، ولم تأته إلا بعد أن أتيحت له الفرصة، وجاءت الفرصة سريعة، وكانت مصادفة، وقد أعانه على اقتناص هذه الفرصة المتاحة جهل الوزير السابق وضعف تحصيله، وقد تحدثت المصادر عن هذه الفرصة على خير وجه، من ذلك ما ذكره ابن خلكان وغيره، قال: «كان أحمد بن عمَّار البصري وزير المعتصم، فورد على المعتصم كتاب من بعض العمال، فقرأه الوزير عليه، كان في الكتاب ذكر الكلأ، فقال المعتصم: ما الكلأ؟ فقال الوزير: لا أعلم، وكان قليل المعرفة بالأدب، فقال المعتصم: خليفة أمي، ووزير عامي!! وكان المعتصم ضعيف الكتابة، ثم قال: ابصروا من بالباب من الكتَّاب، فوجدوا محمداً ابن الزيات المذكور، فأدخلوه عليه، فقال له: ما الكلأ؟ فقال: الكلأ العشب على الإطلاق، فإن كان رطباً فهو الخلا، فإذا يبس فهو الحشيش، وشرع في تقسيم أنواع النبات، فعلم المعتصم فضله، فاستوزره وحكمه وبسط يده»[3]، ومن هذا

---

(١) الجُمَّازة: بضم الميم، جبَّة من صوف ضيقة الكُمَّين، وفي الحديث أن النبي ﷺ توضأ فضاق عن يديه كُمَّا جُمَّازة كانت عليه، والجَمَّازة بفتح الجيم: مركب سريع يتخذه الناس في المدن (شبه العجلة التي تجرها الخيل) مولد (المعجم الوسيط: جمز) ولعله أراد المعنى الثاني بدليل الفساطيط ووصف الجمازات بالآلة: وآلة الجمارات.

(٢) تاريخ الطبري ٥/٣١٢ ـ ٣١٣ ط مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٠، وانظر معجم الشعراء ص٣٦٥.

(٣) وفيات الأعيان ٤/١٨٦ ط عبد الحميد، مصر ١٩٤٨، والوافي بالوفيات ٤/٣٢، والفخري ص٢٣٢ وشذرات الذهب ٣/١٥٤، والخزانة ١/٤٤٦، ولطائف الأخبار ص٣٣.

النص نستدل على أن ابن الزيات كان كاتباً وليس قهرماناً يجهز أمور الدار والمطبخ فحسب، بدلالة قول المعتصم: (ابصروا من بالباب من الكتاب)، ويعزز هذا قول ابن العماد الحنبلي عن ابن الأهدل قوله: «إن ابن الزيات كان في أول أمره كاتبا، فاتفق أن المعتصم سأل وزيره أحمد بن عمَّار البصري عن الكلأ ما هو...» كما في الرواية السابقة[1]، وكذلك ذكر البديعي بأن ابن الزيات كان في أول أمره من جملة الكتاب[2].

وأكثر المصادر على هذا الرأي، ولكن الطبري ينفرد برواية تجعل ابن الزيات يتسنم الوزارة بعد غضب المعتصم على الفضل بن مروان لاستئثاره بالحكم وتضييقه على الخليفة في النفقات، ونذكر باختصار ما قاله الطبري: «إن الفضل بن مروان كان مع كاتب للمعتصم يقال له يحيى الجرمقاني، وكان الفضل بن مروان يخط بين يديه، فلما مات الجرمقاني صار الفضل في موضعه، ولم يزل كذلك حتى بلغ المعتصم الحال التي عليها، والفضل كاتبه، ثم قدم الفضل قبل موت المأمون بغداد ينفذ أمور المعتصم ويكتب على لسانه بما أحب، حتى قدم المعتصم خليفة، فصار الفضل صاحب الخلافة، وصارت الدواوين كلها تحت يديه، وكنز الأموال، وأقبل أبو إسحاق (المعتصم) حين دخل بغداد يأمره بإعطاء المغني والملهي، فلا ينفذ الفضل ذلك، فثقل على أبي إسحاق، وقد شكا المغني وهو إبرهيم المعروف بالهفتي إلى المعتصم أن الفضل بن مروان لا ينفذ ما يأمر بإعطائه من المال، وحرضه بقوله: «إنما لك من الخلافة الاسم، والله ما يجاوز أمرك أذنيك، وإنما الخليفة الفضل بن مروان الذي يأمر فينفذ أمره من ساعته... فاحتجنها على الفضل المعتصم حتى أوقع به، فقيل إن أول ما أحدثه في أمره حين تغير له أن صيَّر أحمد بن عمَّار الخراساني زماما عليه في نفقات الخاصة، ونصر بن منصور بن بسام زماما عليه في الخراج وجميع الأعمال، وكان محمد بن عبد الملك الزيات يتولى ما كان أبوه يتولاه للمأمون من عمل المشمش والفساطيط وآلة الجمازات»، وفي سنة ٢١٩ هـ خرج المعتصم يريد القاطول، ويريد

---

(١) شذرات الذهب ٣/ ١٥٤.

(٢) هبة الأيام ص ٦٤.

للبناء بسامراء، فلما صار بالقاطول غضب على الفضل بن مروان وأهل بيته، وأمر بحبسه وأخذ منه عشرة آلاف ألف دينار ثم نفاه، وصيَّر مكانه محمد بن عبد الملك الزيات[1]، فصار محمد ابن الزيات وزيراً كاتباً، وجرى على يديه عامة ما بنى المعتصم بسامراء من الجانبين الشرقي والغربي، ولم يزل وزيراً في عهد ابنه الواثق والمتوكل، حتى نكبه المتوكل.

ويمكن التوفيق بين رواية الطبري والآخرين، أن المعتصم لما غضب على الفضل بن مروان صَيَّر أحمد بن عمَّار مكانه ولفترة قصيرة، فلما جاء الكتاب الذي فيه قصة الكلأ جعل ابن الزيات كاتباً يعرض على المعتصم الكتب، وينظر ابن عمَّار في الدواوين، ثم استوزر ابن الزيات بعد قليل وصرف ابن عمَّار صرفاً جميلاً، ويبدو أن الفضل بن مروان كان يتوسم في ابن الزيات الذكاء والفطنة، وكان يخشى أن تتاح له الفرصة فينافسه، ولذلك كان يضطهده ويزدريه، قيل: «كان الفضل بن مروان نصراني الأصل قليل المعرفة بالعلم، حسن المعرفة بخدمة الخلفاء، وقد حاول أن يسقط محمد ابن عبد الملك الزيات، لأنه كان يتفرس فيه الذكاء النادر والعلم، ولا يحب أن يشاهده في دار الخلافة، ولا أن يخالط أهلها ويعرف اسمه ورسمه»[2].

وقد استقبل ابن الزيات الوزارة في عهد المعتصم بقوة وثقة واعتداد، واشترط على المعتصم شروطاً قبلها المعتصم، من ذلك أنه لا يلبس القباء بل يلبس الدراعة، ويتقلد عليها سيفاً طويل الحمائل، وأن يُفْرَدَ له حرس خاص يقوم على حراسته وخدمته، وقد أجاب المعتصم وأعطى ابن الزيات ما أراد[3]، وكان ابن الزيات يعتز بالمنزلة التي وصل إليها، وما أسداه المعتصم إليه من المكانة التي تفرد بها ولم تكن لوزير قبله، فكان يقول: «قد صنع إليَّ الخليفة صنيعة تفرد بها، نقلني من ذل التجارة إلى عز الوزارة»[4]، وكانت هذه المكانة قد جرَّت عليه حسد حساده، بالإضافة إلى ما عرف

---

(١) الطبري حوادث سنة ٢١٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦ / ٢٣.

(٢) كرد علي: أمراء البيان ص٢٨٢.

(٣) الأغاني ٢٣ / ٥٧.

(٤) كرد علي ص ٢٨٣.

عنه من حزم وشدة واعتداد، والناس في كل زمان ومكان (يرهبون القريب من السلطان، ويغتابونه في السر، ويستثقلون ظله أو يعادونه لعدة أسباب)[1]، وكذلك جُبِل ابن الزيات على الاستقامة والعدل والحرص على أموال الدولة، والضرب على أيدي المتلاعبين، ولو كانوا من خلصائه وأصفيائه، ولذلك كان شديداً في أخذ الحق العام وعدم التهاون فيه، والحرص على مال الدولة وعدم الإسراف فيه، فقد كان يسوس أمور الدولة بعقلية التاجر الواعي الحريص، ولم تقتصر محاسبته المتلاعبين بالأموال العامة على الولاة وعمال الخراج وحسب، بل شملت أسرة الخليفة ابنه وأخاه، وقد جرَّت عليه سياسته هذه غضب المتوكل الذي نكبه ونكل به شر تنكيل.

استطاع ابن الزيات بما أوتي من حنكة وحسن تدبير وحزم أن يكسب ثقة المعتصم، فأطلق يده ليدبر أمور الرعية، وكان المعتصم قليل الحظ من العلم، أقرب إلى الأمية منه إلى التعليم، حتى ليقال: إنه كان لا يجيد الخط، ولم يكن في ذكاء أخيه المأمون وعلمه، ولا في قوة أبيه الرشيد وحزمه، وليس له براعة إلا في الأمور العسكرية، وكانت الدولة ضعيفة، وكثر فيها أخلاط الناس من شعوب شتى، وخاصة الفرس والأتراك، وكانت البلاد تضطرب بالعقائد وتضطرم بالثورات التي تؤججها النحل الهدامة، وكانت سياسة ابن الزيات الشديدة الحازمة تعويضاً عما تعانيه الدولة من ضعف، وحين تضعف الدولة يطمع الناس من الولاة والقواد والعمال وأصحاب السلطان فيها، وفي أموال الرعية، فما كان لابن الزيات إلا أن يبسط سلطانه بشدة عادلة وسلطان قوي، فحاسب الولاة على الأموال، واستصفى الأموال من المختلسين ونكل بهم، حتى إنه كان يعذبهم بالتنور الذي ابتكره ليستخرج منهم الأموال المختلسة والضياع المنهوبة، وكان يرى أن النظام لا يستقر ولا تستعيد الدولة هيبتها وسلطانها إلا بالشدة والحزم والعقاب لمن يستحق العقاب، وإن بالغ في حزمه وشدته وقسوته مع المطالبين بالأموال، فكان يعذبهم بالتنور ليستخرج منهم ما اختلسوه من الأموال، وليردع غيرهم من الطامعين الذين يعيثون في الأرض فساداً، وقد بالغ بعض المؤرخين حين جعلوا القسوة طبيعة في نفس ابن الزيات، فقد رووا على لسانه بأن قال: الرحمة

---

(١) كرد علي : أمراء البيان ص ٢٨٤.

(خَوَرٌ في الطبيعة، وضعف في المُنَّة)، وقوله: (ما رحمت شيئاً قط)[1]، فكان خصومه ـ وهم كُثْر ـ يطعنون عليه في دينه بهذا القول، وكثر الحاسدون له والناقمون عليه، والساخطون على سياسته، ولكن هناك من الكتاب من يلتمس لابن الزيات العذر ويبرر هذه القسوة، ومنهم الأستاذ محمد كرد علي الذي يقول: «وفي سنة ٢٢٩هـ نصب ابن الزيات لأصحاب المظالم العداوة، فكشفوا وحبسوا، وأقيموا للناس، ولقوا كل جهد، ومن جملتهم صديقه إبراهيم بن العباس الصولي، نسي صداقته في مطالبته بما تأخر في ذمته من حق بيت المال، فاستهدف لهجائه، وهكذا كان ابن الزيات مع سائر الناس لا يجيز لعامل أن يسرق، ولا للرعية أن تتلكأ في أداء ما عليها حتى ينتظم سير الأعمال»[2]، فابن الزيات رجل دولة حازم، لا يريد أن يعبث عابث بالمال العام، ولا أن تتبدد أموال الدولة بأيدي المختلسين، وقد هُجي ابن الزيات بسبب هذه السياسة وهذه الشدة، ولكن هل كانت الأموال التي يستصفيها يفيد منها أو تذهب إلى خزانته، أم إلى خزانة الدولة ولتدبير مصالحها، سنجد الجواب في آخر المطاف حينما نكل به المتوكل بتحريض من خصمه أحمد بن أبي دواد وطمعاً بماله، فلم يجد المتوكل لديه من الأموال ـ وهو الموسر ابن الموسرين ـ ما يستوجب ذلك العقاب، فندم المتوكل وخسر رجلاً ليس عنه عوض.

ولرب سائل يسأل: هل كانت سياسته هذه في استخلاص الأموال والحرص عليها ومحاسبة المختلسين والمبذرين سواء كانوا من خصومه أو أصدقائه، سياسة لأغراضه الخاصة، أم كانت سياسة عامة لا يحيد عنها حتى لو مست أمور الخلافة وتبذير السلطان على ملذاته وعلى أسرته، ونترك الجواب في هذا للأحداث التي رافقت سياسته في وزارته، والأحداث تقول: إن المعتصم أمر بأن يعطى ابنه الواثق (هارون الواثق بن المعتصم) عشرة آلاف ألف درهم[3] يستعين بها على أمره، ويصلح بها ما يحتاج إلى صلاحه، فدافعه ابن

---

(١) الأصفهاني: الأغاني ٢٣ / ٥٧.

(٢) أمراء البيان ص ٢٩٠.

(٣) وقيل: أمر له بما قيمته ألف ألف دينار، فمحاها ابن الزيات وكتب ما قيمته ألف ألف درهم، وكان محمد قد أجاد محوه فجعل الدينار درهما، وعلم المعتصم أن رأي ابن الزيات في الاقتصاد أصلح.

الزيات في ذلك مدافعة متصلة، أحوجت الواثق إلى شكايته إلى المعتصم، فأنكر المعتصم تأخر المال عن ولده، فقال ابن الزيات: يا أمير المؤمنين، العدل أولى بك، وأشبه بقولك وفعلك، ولك عدة أولاد أنت في أمرهم بين خلتين، إما أن تسوي بينهم في العطية، فتجحف بيت المال، وإما أن تخص بعضهم فتحيف على الباقين... فقال المعتصم: قد رهنت لساني، فما تصنع؟ قال: تأمر لباقي ولدك بإقطاعات وصلات، وتطلق لهارون (الواثق) صدراً من المال، فأدافعه بباقيه، ويتسع الأمر قليلاً، وتدبره بعد ذلك بما تراه، فقال له: وفقك الله، فما زلت أعرف الصواب في مشورتك، وتأدّى الخبر إلى هارون فحلف بعتق عبيده وما يملكه، وبحبس عدة خيل، ووقف عدة ضياع، وصدقة مال جليل، لئن ظفر بمحمد بن عبد الملك الزيات ليقتلنّه، وكتب اليمين بخطه، وجعلها في درج وأودعها دايته[1]. ولكن الواثق حين أفضت إليه الخلافة لم يقتله، بل وجد أن الدولة محتاجة إليه، وإلى صلاحه وحزمه، كما سيأتي.

ولم تكن شدة ابن الزيات على الواثق بن المعتصم حرصاً على المال ومنعاً للتبذير وحسب، بل كانت شدته وقسوته على تربيته وصلاحه واستقامته أيضاً، وبيان ذلك أن معلماً للواثق شكا إلى المعتصم بأن الواثق لا يتعلم، فإذا طالبه بذلك شتمه، ووثب عليه، فأمر المعتصم محمد بن عبد الملك الزيات بأن يضرب الواثق أربع مقارع، فخرج محمد واستدعى الواثق، وضربه ثلاث عشرة مقرعة، حتى مرض، فلما عرف أبوه الخبر أنكر ذلك، وحلف للواثق أنه ما أمر محمداً إلا بأن يضربه أربع مقارع، فأخفاها الواثق في نفسه، فكان يبغضه، وعلم محمد بذلك فكان يقصده في ضياعه وأملاكه لما ترعرع، وقيل: إن الواثق أقسم على قتل ابن الزيات حين تفضي الخلافة إليه، وإنه قال لخادمه: «قد تمّ عليّ من هذا الكلب كل مكروه، فإن أفضت الخلافة إليّ، فقتلني الله إن لم أقتله، ثم قال له: أنت خادمي وثقتي، فإن أفضى هذا الأمر إليّ فاقتله ساعة أخاطب بالخلافة، ولا تشاورني، وجئني برأسه»[2].

وما دمنا في صدد الحديث عن حرص ابن الزيات على المال العام وحزمه وشدته

---

(١) أعتاب الكتاب ص١٣٤ ـ ١٣٥، والفخري ص٢٣٢، ونشوار المحاضرة ٨/ ١٤ ـ ١٥.
(٢) الوافي بالوفيات ٤/ ٣٣، أعتاب الكتاب ص١٣٥، الفخري ص٢٣٢.

وحسن تدبيره، وقد مضى الكلام عن سياسته في عهد المعتصم، فلنواصل الحديث عن سياسته في عهد الواثق، ولنقدم لذلك بالكيفية التي صار بها وزيراً، وقد مر بنا أن قصة الكلأ وما رافقها من مصادفة، وما كان من استعداد ابن الزيات العقلي والثقافي، كل ذلك مكنه من وزارة المعتصم، فإن الكفاءة وحسن الأداء وحاجة الدولة إليه مكنته من الوزارة ثانية.

توفي المعتصم ونودي بالواثق خليفة بعده، وكان الواثق عاقلاً حصيفاً حليماً، وحضر الكتّاب في أول يوم، وكان ابن الزيات مع من حضر، فطلب الواثق من الكتاب ـ غير ابن الزيات ـ بأن يكتب كلٌّ منهم نسخة بخبر وفاة المعتصم وتقلده الخلافة، فكتبوا بأسرهم، وعرضوا ذلك عليه، فلم يرضه، فقال لمحمد: اكتب أنت، فكتب في الحال بلا نسخة، كتاباً حسناً، وعرضه عليه، فاستحسنه، وأمر بتحرير الكتب عليه، ولم يبرح حضرته حتى أقره على الوزارة، وخرج من بين يديه والناس كلهم خلفه. قال الخادم: فعجبت من ذلك، وقلت: تراه أنسى ما كان أمرني به؟ لمَ لا أستأذنه في ذلك وأذكره به؟ فتقدمت إليه لما خلا وأذكرته الحديث، واستأذنته، فقال: «ويحك، السلطان إلى محمد بن عبد الملك أحوج من محمد إلى السلطان، دعه»[1].

وفي رواية ابن خلكان تفصيل وبيان، قال: فجيء بابن الزيات وهو واجم مضطرب، فلما وقف بين يديه قال له: اكتب.... فأخرج من كُمِّه نصفاً، ومن خُفِّه دواة، وابتدأ يكتب بين يديه حتى فرغ من الكتاب. ثم أخرج خريطة فيها حصى، فأترب الكتاب وأصلحه، وتقدم فناوله إياه، فوجده قد أتى على جميع ما في نفسه، فأعجب به جداً، وقال: اختمه، فأخرج من الخريطة طيناً فوضعه عليه، وتناوله فختمه، وأنفذه من ساعته. فقال الواثق لخادم له: امضِ إلى دايتي وقل لها توجه إليَّ بالدرج الفلاني، فمضى الخادم فجاء به، فأخرج الرقعة ودفعها إليه، فقال ابن الزيات: يا أمير المؤمنين، أنا عبد من عبيدك، إن وفيت بيمينك فأنت محكم. وإن غفرت وصفحت كان أشبه بك، قال: لا والله، ما يمنعني من الوفاء بيميني إلا التعاسة على أن يخلو الملك من مثلك، وأمر بعتق من حلف بعتقه، ووقف الضياع، وحبس الخيل، وأنفذ صدقة المال، وقال الواثق: «عن

---

(١) أمراء البيان ص٢٨٩.

المال والفدية من اليمين عوض، وليس عن المُلْك وابن الزيات عوض»[1].

وعلت منزلة ابن الزيات في زمن الواثق، وأطلق يده في الحكم، وكان معجباً به محباً له، ومصداق ذلك ما رواه محمد بن الفضل بن الأسود الكاتب، قال: حدثني ابن قريش ابن أنس عن أبيه قال: «دخلت على الواثق فقال لي: يا أبا قريش، اخرج رقعة من تحت المصلى، فمددت يدي فأخرجت الرقعة وقرأتها، وقلت: يا أمير المؤمنين، رقعة حسنة، أولها تشوق، وأوسطها استعتاب، وآخرها استبطاء، وإذا آخر الرقعة:

إنْ يكنْ حبلُكَ من حبلي وهَى ... فإلى شوقي يكونُ المنتهى
لم يذكِّرنيكَ خطْبٌ حادثٌ ... إنما يذكر مَنْ كان سها

وكانت الرقعة من محمد بن عبد الملك، فقال الواثق: ويلومني الناس على حب محمد بن عبد الملك»[2]، وقد رفع الواثق من شأن ابن الزيات وأكرمه ووقره، من ذلك أنه أمر أن لا يرى أحدٌ من الناس محمد بن عبد الملك الوزير، إلا قام له، واستمر ابن الزيات في عهد الواثق يواصل سياسته الحازمة العادلة الحريصة على أموال الدولة والضرب على أيدي المتلاعبين والمختلسين والمسرفين، حتى لو كانوا من أهل السلطان وحاشيته والمقربين إلى الخليفة، ومما يلاحظ أن هناك فئة كانت في بغداد في عهد الواثق تعبث بأموال الدولة وتجمع من أموال الخراج ما شاء لها أن تجمع، من مثل إيتاخ، وكاتبه سليمان بن وهب، وعلي أشناس، وكاتبه أحمد بن الخطيب، فكبر الأمر على ابن الزيات، وحاول أن يضع حدا لعبث القواد الأتراك وجندهم، وأن ينبه الخليفة إلى عبث هؤلاء وفسادهم وظلمهم، وإرهاب الرعية وابتزازهم، فكتب ابن الزيات قصيدة على أنها لبعض أهل العسكر، وأوصلها إلى الواثق، وفيها حث على الضرب على أيديهم ومنعهم من إهدار الأموال وخراب الديار، وفي هذه القصيدة يقول:[3]

(١) وفيات الأعيان ٥ / ٩٩، الوافي بالوفيات ٤ / ٣٣.
(٢) الديوان ١٧٠.
(٣) الأغاني ٢٠ / ٢٨٧ ـ ٢٨٨، أعتاب الكتاب ص١٣٨، والديوان ق ١٢٠.

يا ابنَ الخلائفِ والأملاكِ إنْ نُسبوا حُزْتَ الخلافَةَ عن آبائكَ الأُوَلِ
أَجُرْتَ أم رقدتْ عيناكَ عن عَجبٍ فيه البريةُ من خوفٍ ومن وَجَلِ
ولَّيْتَ أربعَةً أمْرَ العِبادِ معاً وكلُّهمْ حاطِبٌ في حبْلِ مُحْتَبِلِ

ويسمي واحداً واحداً وما جنت يداه ويحرضه على التنكيل بهم وفي آخر القصيدة بقوله:

عثْ فيهمُ مثلَ ما عاثَتْ يداهُ معاً على البرامكِ بالتهديمِ للقُلَلِ

وكان ابن الزيات يقف مواقف رشيدة حازمة في وجه الإسراف وهدر الأموال وإنفاقها في غير الوجه الصحيح، حتى لو جاء هذا الإسراف من قبل الخليفة نفسه، وفي قصة الجارية (قلم الصالحية) خير دليل على هذا الزعم، والقصة كما رواها أبو الفرج الأصفهاني تقول: «كانت قلم الصالحية جارية صالح بن عبد الوهاب، إحدى المغنيات المحسنات المتقدمات، فغُني بين يدي الواثق لحن لها في شعر محمد بن كناسة، قال:

فيَّ انقباضٌ وحشمةٌ فإذا صادفتُ أهلَ الوفاءِ والكرمِ
أرسلتُ نفسي على سجيَّتِها وقلتُ ما قلتُ غيرَ محتشمِ

فسأل لمن الصنعة فيه؟ فقيل: لقلم الصالحية جارية صالح بن عبد الوهاب، فبعث إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأحضره، فقال: ويلك، مَنْ صالح بن عبد الوهاب هذا؟ فأخبره، قال: أين هو؟ قال: ابعث فأشخصه وأُشخصْ معه جاريته، فقدما على الواثق، فدخلت عليه قلم، فأمرها بالجلوس والغناء، فغنت، فاستحسن غناءها وأمر بابتياعها، فقال صالح: أبيعها بمائة ألف دينار وولاية مصر، فغضب الواثق من ذلك، ورد عليه، ثم غنى بعد ذلك زُرْزُورٌ الكبير في مجلس الواثق صوتاً، والشعر فيه لأحمد بن عبد الوهاب أخي صالح، والغناء لقلم، وهو:

أبتْ دارُ الأحِبَّة أنْ تبينا أجِدَّكَ ما رأيتَ لها معينا (١)
تقطعُ نفسُهُ من حُبِّ ليلى نفوساً ما أُثِبْنَ ولا جُزينا

(١) أجِدَّكَ أي: أجداً منك، أي: أحقا ما تقول.

فسأل: لمن الغناء؟ فقيل له: لقلم جارية صالح، فبعث إلى ابن الزيات فأشخص صالحاً ومعه قلم، فلما أشخصهما دخلت على الواثق، فأمرها أن تغنيه هذا الصوت، فغنته، فقال لها: الصنعة فيه لكِ؟ قالت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: بارك الله عليك، وبعث إلى صالح فأُحْضِرَ، فقال: أما إذا وقعت الرغبة فيها من أمير المؤمنين فما يجوز أن أملك شيئاً له فيه رغبة، قد أهديتها إلى أمير المؤمنين، فإنَّ من حقها عليَّ إذا تناهيت في قضائه أن أصيِّرها ملكه، فبارك الله له فيها، فقال له الواثق: قد قبلتها، وأمر ابن الزيات أن يدفع إليه خمسة آلاف دينار، وسمّاها احتياطاً، فلم يعطه ابن الزيات المال، ومطله به، فوجَّهَ صالح إلى قلم مَنْ أعلمها ذلك، فغنت الواثق ـ وقد اصطبح ـ صوتاً، فقال لها: بارك الله فيكِ وفيمن ربَّاك، فقالت: ياسيدي، وما نفع من رباني منّي إلا التعب والغُرم عليَّ والخروج مني صفراً؟ قال: أو لم آمرْ له بخمسة آلاف دينار؟ قالت: بلى، ولكن ابن الزيات لم يعطه شيئاً، فدعا بخادم من خاصَّة الخدم، ووقع إلى ابن الزيات بحمل الخمسة آلاف الدينار إليه، وخمسة آلاف دينار أخرى معها، قال صالح: فصرت مع الخادم إليه بالكتاب، فقربني وقال: أما الخمسة آلاف الأولى فخذها فقد حضرت، والخمسة آلاف الأخرى أدفعها إليك بعد جمعة، فقمت، ثم تناساني كأنه لم يعرفني، وكتبت أقتضيه، فبعث إليَّ: اكتب لي قبضاً[1] بها وخذها بعد جمعة، فكرهت أن أكتب قبضا بها فلا يحصل لي شيء، فاستترت في منزل صديق لي، فلما بلغه استتاري خاف أن أشكوه إلى الواثق فبعث إليَّ بالمال، وأخذ كتابي بالقبض، ثم لقيني الخادم بعد ذلك فقال لي: أمرني أمير المؤمنين أن أصير إليك فأسألك: هل قبضت المال؟ قلت: نعم قد قبضته، قال صالح: وابتعت بالمال ضيعة، وتعلقتُ بها وجعلتها معاشي، وقعدت عن عمل السلطان، فما تعرضت منه لشيء بعدها»[2].

ويتضح من هذا أن ابن الزيات كان يماطل في دفع المال الذي يراه إسرافاً، وكان الخليفة يعرف أن سياسة ابن الزيات في ردع الطامعين سياسة حكيمة، فلا يعترض،

---

(١) أي وصلاً بالاستلام.

(٢) الأغاني ١٣ / ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

وقد أراد أن يستوثق من دفع المال دون أن يلوم وزيره أو يعاقبه، وتتضح شخصية ابن الزيات ــ من خلال هذا النص ــ قوية مهيبة، مخشية الجانب، وهو في سياسته هذه يريد أن يحد من إسراف الخليفة والتمادي في نزواته فيماطل في دفع المال الذي ينفق في وجوه اللهو والشهوات، ليدخره لبيت المال.

وكان ابن الزيات في وزارته للواثق شديداً على أخيه جعفر المتوكل، يعامله بقسوة وجفاء، لما رأى فيه من رعونة وسفه وانصراف إلى اللهو، فكان يصده ويردعه قصد تقويمه وإصلاحه، روى الطبري في سبب غضب المتوكل ــ حين صار خليفة ــ على ابن الزيات والتنكيل به: «أن الواثق كان استوزر محمد بن عبد الملك الزيات، وفوَّض إليه الأمور، وكان الواثق قد غضب على أخيه جعفر المتوكل لبعض الأمور، فوكل عليه عمر بن فرج الرُّخَجي ومحمد بن العلاء الخادم، فكانا يحفظانه ويكتبان بأخباره في كل وقت، فصار جعفر (المتوكل) إلى محمد بن عبد الملك يسأله أن يكلم له أخاه الواثق ليرضى عنه، فلما دخل عليه مكث واقفاً بين يديه ملياً لا يكلمه، ثم أشار إليه أن يقعد، فقعد، فلما فرغ من نظره في الكتب التفت إليه كالمتهدد له، فقال: ما جاء بك؟ قال: جئتُ لتسألَ أمير المؤمنين الرضا عني، فقال لمن حوله: انظروا إلى هذا، يغضب أخاه، ويسألني أن أسترضيه له، اذهب، فإنك إذا صلحت رضي عنك، فقام جعفر كئيباً حزيناً لما لقيه به من قبح اللقاء والتقصير به، فخرج من عنده، فأتى عمر ابن فرج ليسأله أن يختم له صكَّه ليقبض أرزاقه، فلقيه عمر بن فرج بالخيبة وأخذ الصك فرمى به إلى صحن المسجد»(١)، ثم ترفق به أبو الوزير أحمد بن خالد، وكان حاضراً، فقال له: ابعث إليَّ بوكيلك، فبعث جعفر بوكيله فدفع إليه عشرين ألفاً. وكان هذا الجفاء من ابن الزيات للمتوكل يقابله استرضاء وحنان من خصمه أحمد بن أبي دواد، فحين خرج المتوكل قصد ابن أبي دواد فدخل عليه، فقام له أحمد واستقبله على باب البيت، وقبَّله والتزمه، وقال له: جئتُ لتسترضي لي أمير المؤمنين، فقال: أفعل ونعمة عين وكرامة، وكلَّم أحمد بن أبي دواد الواثق، فوعده ولم يرض عنه. أما ابن الزيات فحين خرج المتوكل من عنده كتب إلى الواثق يقول: «يا أمير المؤمنين،

---

(١) الطبري ١٠ / ٥.

أتاني جعفر بن المعتصم يسألني أن أسأل أمير المؤمنين الرضا عنه في زي المخنثين، له شعر قفاه، فكتب إليه الواثق، ابعث إليه فأحضره، ومُرْ مَنْ يجزُّ شعر قفاه، ثم مُرْ من يأخذ من شعره ويضرب به وجهه، واصرفه إلى منزله»[1]، ويذهب الرسول إلى المتوكل، فلبس المتوكل سواداً جديداً، وجاء آملاً أن يجد أن الواثق قد رضي عنه، فلما حضر دعا ابن الزيات حجاماً، وقال له: خذ شعره واجمعه، فأخذه على السواد الجديد، ولم يأته بمنديل، فأخذ شعره وشعر قفاه وضرب وجهه. قال المتوكل: «فما دخلني من الجزع على شيء مثل ما دخلني حين أخذ على السواد الجديد، وقد جئته فيه طامعاً في الرضا، فأخذ شعري عليه»[2]. ولما توفي الواثق أشار ابن الزيات بخلافة ابن الواثق، وتكلم في ذلك، وجعفر المتوكل في حجرة أخرى يسمع، فلما ولي المتوكل، كان هلاك ابن الزيات.

مازلنا في سيرة ابن الزيات وهو في الوزارة، وقد كان يتصرف تصرف الواثق المتمكن الشديد الحازم، مع شيء غير قليل من قسوة كانت كائنة في طبعه وتكوينه، وقد رسَّخ أسساً ورسوماً لمراسيم الخلافة، فقد تولى ابن الزيات الوزارة لمدة أربع عشرة سنة لخليفتين دون انقطاع، وهما المعتصم والواثق، وتولى لفترة قصيرة للمتوكل (أمدها أربعون يوماً)، ولاشك أن من يحكم مدة طويلة، ويكون حازماً شديداً يتعرض لحسد الناس وكرههم ومكايدهم، وتشاع عنه أقاويل، بعضها له أصل صحيح فتضخَّم، وبعضها محض افتراء، من ذلك قسوته وكيده لخصومه، وكيد الخصوم له أيضاً، وكل امرىء معرض للخطأ والزلل وهوى النفس، وكذلك كان أمر ابن الزيات، ومن الناس من كان يلتمس لشدته العذر، ويجد فيها صلاح الدولة، ومنهم من يؤاخذه عليها ويعدها في عداد مساوئه، ولذلك فقد تعرض ابن الزيات لمدح المحبين والمعجبين من الشعراء والكتاب، وذم المبغضين وهجائهم الهجاء الشديد.

وقد كان مما يذكر من محامد ابن الزيات أنه قرَّب العلماء وأجلَّهم وأكرمهم، وحثَّهم على ترجمة العلوم، فترجموا له كتباً في الطب، وكان له نقلة ونسَّاخ

---

(١) الطبري ١٠ / ٦.

(٢) الطبري ١٠ /٧.

ينسخون له، وترجم له العلماء والأطباء كتباً من اليونانية، ونُقل باسمه عدة كتب من اليونانية وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء مثل يوحنا بن ماسويه وجبرائيل بن بختيشوع، وبختيشوع بن جبرائيل، وداود بن سرابيون، وسلمويه بن بنان، واليسع وإسرائيل بن زكريا بن الطيفوري، وحبيش بن الحسن، وكان يغدق على النسَّاخ والمترجمين في كل شهر ألفي دينار[1]، وكان من جملة الأدباء الكبار المقربين إليه الجاحظ الذي أهدى له كتاب الحيوان[2]، وقد أثني عليه الجاحظ لتقريبه الأدباء والإغداق عليهم فقال:[3]

بدا حين أثرى بإخوانه ففلَّلَ منهم شَباةَ العَدَمْ
وأبصر كيف انتقالُ الزما ن فبادرَ بالعُرْفِ قبلَ النَّدَمْ

ولاحتفال ابن الزيات بالعلم والعلماء أن كانت له مكتبة عامرة حافلة بمختلف العلوم والفنون، وكانت منهلاً للعلماء والأدباء وكان ابن الزيات حريصا على اقتناء كل نفيس من الكتب، روى الجاحظ قال: «أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم، ففكرت في شيء أهديه له، فلم أجد أشرف من كتاب سيبويه، فلما وصلت إليه قلت: لم أجد شيئاً أهديه لك مثل هذا الكتاب، وقد اشتريته من ميراث الفرَّاء، فقال: والله ما أهديت لي شيئاً أحب إليَّ منه»، وفي رواية أن ابن الزيات قال: «أو ظننت أن خزانتنا خالية من هذا الكتاب؟ فقال الجاحظ: ما ظننت ذلك، ولكنها بخط الفرَّاء، ومقابلة الكسائي، وتهذيب أبي عمرو الجاحظ، يعني نفسه، فقال ابن الزيات: هذه أجل نسخة توجد وأعزها، فأحضرها إليه، فسُرَّ بها ووقعت منه أجمل موقع»[4].

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١/٢٠٦، الجبوري: الكتاب في الحضارة الاسلامية ص٢١٥.
(٢) ياقوت: معجم الأدباء ٥/٢١١٧.
(٣) الحصري: زهر الآداب ٢/٥٤١.
(٤) وفيات الأعيان ١/٥٤٩، الأنباري: نزهة الألباء ص ٧٤ ـ ٧٥، تاريخ بغداد ١٢/١٩٦، معجم الأدباء ٦/٨٥ ـ ٨٦.

وكان ابن الزيات يحب أن تترسخ أصول الحكم، ويكون للخلافة هيبة، فابتدع أموراً فيها توقير لمظاهر السلطان وأبهة الحكم، وكان يلتزم بهذه الأمور رغبة في أن يقتدي به الوزراء من بعده، من ذلك أنه إذا أراد أن يختم الكتاب، دعا بدرج فيه الخاتم، فإذا جيء به وهو خاتم الملك، قام قائما فأخذه إجلالاً له، ثم جلس فأخرجه، وختم الكتاب به ورده إلى الدرج، وختم عليه. وقد أهلته مقدرته وحرصه على هيبة الخلافة أن يكون ذا قدر ومكانة مكينة لدى الخلفاء، من ذلك أنه كان إذا خلا بالخليفة يناقشه في بعض أمور الخلافة، ولم يكن وزيراً منفذاً وحسب، وقد أعطي صلاحية أن يعقد للولاة في دار الخلافة ، ولم تكن العادة كذلك قبله، فقد ابتدع هذا الأمر تعظيماً لأمر الولاية، من ذلك أنه عقد لإسحاق بن إبراهيم على اليمامة والبحرين وطريق مكة مما يلي البصرة، في دار الخلافة، قالوا: «ولم يذكر أن أحداً عقد لأحد في دار الخلافة إلا الخليفة غير محمد بن عبد الملك الزيات، كما لم يعهد أن أحداً بدأ الكلام مع الخلفاء قبل أن يبدؤوه غير أحمد بن أبي دواد»(١).

وكان ابن الزيات يراعي عواطف العامة، ويجيد سياستهم، ويرى أن إثارتهم وتهييجهم سبب في الفتنة وقد نظم هذا المعنى جحظة البرمكي في قوله:(٢)

أرى الإرجافَ متصلاً بحالٍ ولابسَ حليتي كِبْرٍ وتيهِ

وإرجافُ العوامِ مقدماتٌ لأمرٍ كائنٍ لا شكَّ فيهِ

فكان يجلس للمظالم، وينظر في شكاوى الناس، ويعطي ذا الحق حقه، ويرد عليه ما اغتُصِب من ماله، حتى لوكان الغاصب وكيل ابن الزيات نفسه، والمال مال ابن الزيات، روى أبو الفرج عن هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات، قال: «جلس أبي يوماً للمظالم، فلما انقضى المجلس، رأى رجلاً جالساً، فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم، تدنيني إليك، فإني مظلوم، فأدناه، فقال: إني مظلوم وقد أعوزني الإنصاف، قال: ومن ظلمك؟ قال: أنت، ولست أصل إليك فأذكر حاجتي، قال: ومن يحجبك

---

(١) أمراء البيان ص ٢٩١.

(٢) معجم الأدباء ٣/ ١٠١٩. ديوان جحظة البرمكي ص٧٦.

عني وقد ترى مجلسي مبذولاً؟ قال: يحجبني عنك هيبتي لك وطول لسانك، وفصاحتك، واطِّراد حجتك، قال: ففيمَ ظلمتُك؟ قال: ضيعتي الفلانية، أخذها وكيلك غصباً بغير ثمن، فإذا وجب عليها خراج أدَّيتُه باسمي لئلا يثبت لك اسم عليها، فيبطل ملكي، فوكيلك يأخذ غلَّتَها، وأنا أؤدي خراجها، وهذا مما لم يسمع في الظلم مثله، فقال محمد: هذا قول تحتاج إليه إلى بيِّنة وشهود وأشياء، فقال له الرجل: أيؤمنني الوزير من غضبه، حتى أجيب؟ قال: قد أمَّنتك، قال: البينة هم الشهود، وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شيء، فما معنى قولك: بينة وشهود وأشياء، إيش هذه الأشياء إلا العي والحَصَر والتغطرس، فضحك وقال: صدقت، والبلاء موكل بالمنطق، وإني لأري فيك مصطنعاً، ثم وقَّع له برد ضيعته، وصيَّره من أصحابه واصطنعه»[1]، وفي هذه الرواية دلالة واضحة على عدل ابن الزيات وإنصافه وسعة صدره في أمور الحق.

ابن الزيات الإنسان:

حياته الخاصة، وصلاته بأعلام عصره:

نشأ ابن الزيات في عهد المأمون وكان شاباً ذكياً فطناً طموحاً، وقد استهواه الأدب، فنظم الشعر، ومال إلى الكتابة، فشغف بمصاحبة العلماء والكتَّاب وأصحاب الديوان، فلازمهم وحضر مجالسهم، وقد حظي بصحبة أعلام كتاب العصر في ديوان المأمون والمعتصم، من مثل عمرو بن مسعدة، وأحمد بن يوسف، وسهل بن هارون، والفتح بن خاقان، وطاهر بن الحسين، والجاحظ، وغيرهم من كبار الكتاب، وقد تعلم من هؤلاء، وفي ديوان الخلافة أساليب الكتابة وأصول المراسلات، ونظام الإدارة، وبالإضافة إلى ذلك أخذ أصول العربية وعلومها من اللغويين والأدباء الذين عاصرهم، وحضر مجالسهم، فقد عاش في عصر ازدهار الرواية والعلم ونضج علوم العربية، وكان في هذا العصر أفذاذ اللغويين والأدباء من أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي والأصمعي وأبي عبيدة والكسائي وأبي زيد الأنصاري والفرَّاء والمازني وقطرب وغيرهم، وقد مر

---

(١) الأغاني ٢٣/ ٥٢ ـ ٥٣.

بنا أن أبا عثمان المازني كان يرى فيه الفتى النابغ الذي يرجع إليه إذا اختلف المتعلمون في مسألة من مسائل النحو واللغة، فقد روى ميمون بن هارون الكاتب: «أن أبا عثمان المازني لما قدم بغداد أيام المعتصم، كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في علم النحو، فإذا اختلفوا فيما يقع فيه شك، يقول لهم المازني: ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب ــ يعني محمد بن عبد الملك ــ اسألوه، واعرفوا جوابه، فيفعلون، فيصدر الجواب من قبله بالصواب الذي يرتضيه المازني، ويقفهم عليه»[1]، وقد مر بنا أيضاً أن معرفته بالعربية وإلمامه الواسع بها كانت سبيلا لوصوله إلى الوزارة، وهي قصة الكلأ التي تقول: إن كتاباً من بعض العمال ورد على المعتصم، فقرأه عليه وزيره أحمد بن عمَّار، وكان في الكتاب ذكر الكلأ، فقال المعتصم: ما الكلأ؟ فقال: لا أعلم، وكان قليل المعرفة بالأدب، فقال المعتصم: خليفة أمي ووزير عامي!! وكان المعتصم ضعيف الكتابة، ثم قال: ابصروا من بالباب من الكتاب، فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات، فأدخلوه إليه، فقال له: ما الكلأ ؟ فقال: الكلأ العشب على الإطلاق، فإن كان طرياً فهو الخلا، فإذا يبس فهو الحشيش، وشرع في تقسيم أنواع النبات، فعلم المعتصم فضله[2]، وكان ابن الزيات فطناً محيطاً بعلوم عصره، دقيق الملاحظة بحل المشكلات وما غمض على الآخرين فهمه، من ذلك أن المعتصم سأل مرة جماعة من خواصه عن سبب تسمية طاهر ذا اليمينين، فلم يعلموا، فقال محمد ابن عبد الملك: ذو الاستحقاقين، استحقاق ما لجده من رزق في الدولة واستحقاق ما له في دولة المأمون[3].

ولم يكن نصيب ابن الزيات وتحصيله في حياة الجد والعلم وحسب، بل كان له نصيبه الوافر من الحياة العامة، فقد شارك الآخرين في لهوهم ومجالس أنسهم، فهر شاعر جيد الشعر يقول في أغراض الشعر العصرية من غزل وهجاء ورثاء ومداعبة الإخوان، وغير ذلك من أغراض وفنون، وما بقي من شعره يصور حياته، فهو سجل لسيرته في

---

(١) تاريخ بغداد ٣ / ١٤٤، الخزانة ١ / ٤٤٩.
(٢) الوافي بالوفيات ٤ / ٣٢، لطائف الأخبار ص٢٣، الخزانة ١ / ٤٤٩.
(٣) كرد علي ص ٢٨٢، وانظر الأعلام للزركلي ٣ / ٢٢١.

حالتي الرضا والغضب، والوصل والعتاب، والجد والمجون ، ويبدو أنه ذاق حلاوة العشق وتعلق بالنساء، واستمتع بشبابه، وهو يفصح عن ذلك في قوله:(١).

تَجَلَّدْتُ في حُبِّي وما بي قُوَّةٌ ولي زَفَراتٌ شاهداتٌ على عِشْقِي

وهو منجذب إلى النساء رقيق معهن طيِّع لديهن:(٢)

إن الغواني وكلَّ شيء يقالُ فاقْبَلْهُ في الغَواني

يَنَلْنَ حاجاتهنَّ عندي بلمحة الأعينِ الحِسانِ

وذكر عنه أنه كا يعشق جارية من جواري القيان، فبيعت من رجل من أهل خراسان، فأخرجها ذلك الرجل، فذهل عقله حتى غُشي عليه، ولما أفاق أنشد:(٣)

يا طول ساعات ليل العاشقِ الدَّنِفِ وطولِ رِعْيَتِهِ للنَّجْمِ في السَّدَفِ

ماذا تُواري ثيابي من أخي حُرَقٍ كأنما الجسمُ منه دِقَّةُ الأَلِفِ

ما قال يا أسَفَى يعقوبُ من كمدٍ إلا لطولِ الذي لاقى من الأسفِ

مَن سرَّهُ أن يرى ميتَ الهوى دَنِفا فليسْتَدِلَّ على الزياتِ وَلْيَقِفِ

وهو رقيق العاطفة وفي لمن يحب، كان يحب زوجته (سكرانة) وهي أم ابنه عمر، وتوفيت فبكى عليها وتحسر ورثاها بصادق الرثاء، يقول:(٤)

يقول لي الخلاَّن لو زُرْتُ قبرَها فقلتُ وهلْ غيرُ الفؤادِ لها قَبْرُ

على حين لم أُحدِثْ فأجهل قدرَها ولم أبلغ السِّنَّ التي معها الصبرُ

ورثاها في قصيدة أخرى، صور فيها حاله بعد فراقها، وحال ابنه الطفل الذي لم يجاوز الثماني سنوات، يتذكرها في الليل، ويريد أن ينام في حضنها فلا يجد إلى ذلك سبيلا، وهي قصيدة من أروع القصائد التي قيلت في رثاء الزوجات ويُتم

---

(١) الديوان ق ١٠٠ .

(٢) الديوان ق ١٥٣ / البيت = ب ٧-٨ .

(٣) تاريخ بغداد ٣ / ١٤٥، الديوان ق ٩٤ .

(٤) الأغاني ٢٣ / ٥٨، ق ٥٤ .

الأطفال، يبدؤها بقوله:[1]

ألا من رأى الطفلَ المفارقَ أُمّه ... بُعيدَ الكرى عيناهُ تبتدرانِ
رأى كلَّ أُمٍّ وابنها غير أمِّه ... يبيتانِ تحتَ الليلِ ينتجيانِ

وفيها يقول:

فهبني عَزَمْتُ الصبرَ عنها لأنني ... جليدٌ فمن للصبرِ لابنِ ثمان
ضعيفُ القوى لا يطلبُ الأجرَ حِسْبَةً ... ولا يأتَسي بالناسِ في الحَدَثان

أما مجالس لأنس واللهو فقد حضرها، وشرب الخمر وتغنى بها، ووصف مجالسها وحديث ندمائها، على شاكلة قوله:[2]

سُقْياً لمجلسنا الذي جُمِعَتْ به ... طُرَفُ الحديثِ وطاعةُ الجُلاَّسِ
ظَلْنا ويحيى كالمؤمَّرِ بيننا ... نُسْقى ونشربُ تارةً بالكاسِ
نِصفيْن يشربُ بعضُنا من قهوةٍ ... صِرْفٍ تُضيءُ كشُعْلَةِ المِقْباسِ
والآخرونَ على النبيذِ عُكوفُهم ... شَتَّانَ إنْ قسْناهما بقياس

وقد شاعت في عصره بدعة الغزل بالمذكر، ويبدو أن الكتَّاب كانوا ميَّالين إلى هذا الضرب من الغزل، أو قل هذا الشذوذ، وابن الزيات كان موسراً مترفاً، وله غلمان كما له جوارٍ حسان، وفي الرواية التالية دلالة على اتهام الكتاب بحب الغلمان، روى أبو الفرج الأصفهاني، قال: «جاء ابن دنقش الحاجب إلى محمد بن عبد الملك برسالة من المعتصم ليحضر، فدخل ليلبس ثيابه، ورأى ابن دنقش الحاجب غلمانا لهم رُوقة[3] فقال وهو يظن أنه لا يسمع:

وعلى اللواطِ فلا تلومَنْ كاتبا ... إنَّ اللواطَ سجيَّةُ الكُتَّابِ

(١) الديوان ق١٤٩.
(٢) الديوان ق٧٥.
(٣) لهم روقة، أي: فائقو الجمال.

فقال محمد له:

وكما اللواطُ سجيَّةُ الكُتَّابِ فكذا الحلاقُ سجيةُ الحُجَّاب[1]

فاستحيا ابن دنقش، واعتذر إليه، فقال له: إنما يقع العذر لو لم يقع الاقتصاص، فأما وقد كافأتك فلا[2]، ومما يعزز ميل ابن الزيات إلى الغلمان ما روي من أنه كان يحب غلاما لعمير المأموني اسمه بديع، وكان من أحسن خلق الله وجهاً، وكان محمد يحبه ويجنُّ به جنوناً على حد قول الأصفهاني، وقد اجتازه الغلام، وقد ركب الفرس، وتحلى بزي الفرسان، فقال ابن الزيات:[3]

راح علينا راكباً طِرفَهُ أغْيَدُ مثلُ الرشأ الآنسِ
قد لبسَ القرْطَقَ واستمسكت كفَّاهُ من ذي بُرَقٍ يابسِ
وقُلِّدَ السيفَ على غُنْجِه كأنهُ في وقعةِ الدَّاحِسِ
أقولُ لَمَّا أنْ بدا مُقْبِلاً يا ليتني فارسُ ذا الفارسِ

وابن الزيات فارس، كان له برذون أشهب لم يُرَ مثلُه فراهة[4] وحسناً، يغدو به ويروح إلى دار الخلافة، في زي فيه ترف وجمال وأبهة، وهو يعتز به، ويضن به ويقربه، فسعى به محمد بن خالد حيْلَويه إلى المعتصم، ووصف له فراهته، فبعث المعتصم إليه فأخذه منه، ولم يستطع رد الخليفة، فرثى ابن الزيات برذونه، وتحسر عليه، وأسف على فراقه في قصيدة يبدؤها بقوله:[5]

كيف العزاءُ وقد مضى لسبيله عنَّا فودَّعنا الأحمُّ الأشهبُ
دبَّ الوشاةُ فأبعدوك وربَّما بَعُدَ الفتى وهو الأحبُّ الأقربُ

---

(١) الحُلاق: الأبنة والعيب.
(٢) الأغاني ٢٣/٥٨.
(٣) الأغاني ٢٣/٦٨، والديوان ق٧٧.
(٤) الفراهة: النشاط.
(٥) لأغاني ٢٣/٦٤-٦٥، والديوان ق٥.

للهِ يوم نأيتَ عنّي ظاعناً   وسُلِبْتُ قُرْبَكَ أي عِلْقٍ أُسْلَبُ

وابن الزيات حريص على حقّه، لا يحب أن يُسْلَبَ شيئاً ولو كان السالبُ سلطاناً، وقد اتخذ من شعره سلاحاً يخيف الغاصبين ويسترد ما أخذ منه، ويتضح ذلك في استرجاعه المال الذي أخذه إبراهيم بن المهدي (ابن شكلة)، حين طلب الخلافة في زمن المأمون، والقصة كما ذكرها أبو الفرج الأصفهاني رواية عن عبيد الله ابن محمد بن عبد الملك، قال: «لما وثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة، اقترض من مياسير التجار مالاً، فأخذ من جدّي عبد الملك عشرة آلاف درهم، وقال له: أنا أردها إذا جاءني مال، ولم يتمَّ أمرُهُ فاستخفى، ثم ظهر ورضي عنه المأمون، فطالبه الناس بأموالهم، فقال: إنما أخذتها للمسلمين، وأردتُ قضاءها من فيئهم[1] والأمر الآن إلى غيري، فعمل أبي محمد بن عبد الملك قصيدة يخاطب فيها المأمون، ومضى بها إلى إبراهيم بن المهدي فأقرأه إياها، وقال: والله لئن لم تعطني المال الذي اقترضته من أبي لأوصلنَّ هذه القصيدة إلى المأمون، فخاف أن يقرأها المأمون فيتدبر ما قاله فيوقع به، فقال له: خذ مني بعض المال ونجِّم عليَّ بعضه، ففعل أبي بعد أن حلَّفهُ إبراهيم بأوكد الأيمان ألا يظهر القصيدة في حياة المأمون، فوفَّى له أبي ذلك، ووفَّى إبراهيم بأداء المال كله»[2] والقصيدة طويلة جاء فيها قوله:[3]

ألم ترَ أنَّ الشيءَ للشيءِ علَّةٌ   تكون له كالنارِ تُقدحُ بالزَّنْدِ
وظنّي بإبراهيم أنَّ مكانَهُ   سيُبْعَثُ يوماً مثل أيامه النُّكدِ
تذكَّرْ أميرَ المؤمنين مقامَهُ   وأيمانَهُ في الهزلِ منهُ وفي الجدِّ
أما والذي أمسيتَ عبداً خليفةً   لهُ شرُّ أيمانِ الخليفةِ والعبدِ
إذا هزَّ أعوادَ المنابرِ باستِهِ   تغنَّى بليلى أو بميَّةَ أو هنْدِ
فواللهِ ما من توبةٍ نزعتْ بهِ   إليكَ ولا ميلٍ إليكَ ولا ودِّ

---

(١) الفيء: الخراج، أوالغنيمة التي تنال بدون قتال.
(٢) الأغاني ٢٣ / ٥٤.
(٣) الديوان ق ٤٩ .

إلى آخر القصيدة التي يذكر فيها طلب إبراهيم الخلافة، وثورته على المأمون ويحرضه على البطشِ بهِ.

وخاض ابن الزيات فيما يخوض فيه الناس من مزح ومداعبات وإخوانيات، ولم يكن في حياته الخاصة مترفعاً عن أصدقائه بعيداً عنهم، فكان يداعب صديقه عيسى ابن زينب ويسخر من ضخامة أنفه الذي يملأ وجهه، ويصفه بأسلوب ضاحك، في مثل قوله: (١)

يا أنف عيسى جزاكَ اللهُ صالحةً ... وزادكَ اللهُ إشراقاً ومتَّسعا

حِصْنٌ حَصِينٌ وعِزٌّ لو تناولَه ... كِسْرى الملوكِ أنو شروان لامْتَنَعا

تركتُ عيسى فما عندي مُخاطَبَةٌ ... له وخاطَبْتُ أنفاً طالَ وارتفعا

رأيتُ أنفاً ولم أعلمْ بصاحِبِه ... فقلت: مَن صاحبُ الأنفِ الذي طلعا

قالوا فتى غابَ فيه قلت وا عجبي ... ما إنْ رأى مثلَ ذا راءٍ ولا سمِعا

يا ويلكم أَخْرِجوه قال ناطقُهم ... هيهاتَ ما إنْ ترى في نيله طَمَعا

وعلى الرغم مما عرف عن ابن الزيات من شدة وقسوة وهو في الوزارة يمارس أعمال السلطان، فإنه كان في حياته الخاصة لطيف المعشر وفياً لأصدقائه، يتفقدهم بالبر والرعاية، فإذا مرض صديق له عاده وواساه، ويعز عليه ما أصابه حتى ليفديه بنفسه، وذلك واضح في قوله يواسي أحد أصدقائه وقد مرض: (٢)

أعْزِزْ عليَّ بأن تكون عليلا ... أو أنْ يكون بكَ السقامُ نَزيلا

وَوَدِدْتُ أنـي مالكٌ لسلامتي ... فأعيرُكاها بُكْرَةً وأصيلا

فتكونُ تسعى سالماً بسلامتي ... وأكونُ مما قد عراكَ بديلا

وأنا أخٌ لك أشتكي ما تشتكي ... وكذا الخليل إذا أجلَّ خليلا

---

(١) الديوان ق ٨٣.

(٢) الديوان ق ١٢١.

وما كان كل أصدقائه أوفياء نصحاء يعودونه إذا مرض، ويبادلونه الود بالود، بل كان فيهم العاق الجاحد المزورُّ عنه، فهو يعاتبه ويأسى لهجره وصدوده، يقول في عتاب صديق له: (١)

يا قلبُ ويحكَ لم تُرِدْ بمودةٍ من لا يريدُكْ
يرهو ويُغْرِق في القِلى وإذا مرضتَ فلا يعودكْ
حتى متى وإلى متى غيُّ الفؤادِ له يقودُكْ
أمسى لغيرك جودُهُ وله - وما يهواك - جودُكْ

ولعل هذه الأبيات قالها في عتاب امرأة يحبها، فهي أقرب إلى عتاب النساء الحبيبات منها إلى عتاب الأصدقاء.

وفي غمار حياته العريضة التي ملأها الجد واللهو وطيب العيش، لم ينس نصيبه من الآخرة وواجباته الدينية، فقد قصد بيت الله وحج في أواخر عهد المأمون، ويبدو أنه حج حجة أخرى أيام وزارته، والحُجَّاج في العادة كانوا وما زالوا يجلبون من الحجاز الهدايا لأهليهم وأصدقائهم، وكانت بين ابن الزيات وبين راشد الكاتب المعروف بأبي حكيمة، صداقة ومودة، ومداعبات شعرية، قال ابن المعتز: «كان بين الوزير ابن الزيات، وبين أبي حكيمة مودة عجيبة، وأُنس كثير، فقدم ابن الزيات من مكة، فجعل الناس يحضرونه للتهنئة، إلا صديقه أبا حكيمة، فقال بعض الحاضرين: أين صديقك أبو حكيمة؟ فوصلت منه إلى ابن الزيات رقعة فيها: (٢)

لا تنسَ عهدي ولا مودتيَهْ واشتقْ إلى طلعتي ورؤيتيَهْ
إنْ غبتَ عنا فلم تغبْ كثرةُ الـ ـذكرِ ولا تغفلنْ هديَّتيَهْ
التمرَ والمقلَ والمساويكَ والفلْـ ـعة للنعل وهي منيتيَهْ

---

(١) الديوان ق١١١.
(٢) طبقات الشعراء ص ٣٨٩، الأغاني ٢٣/ ٦٣- ٦٤.

فكتب إليه ابن الزيات :[1]

إنك مني بحيث ما يطرد النا ظر قربا من تحت دمعتيه
لا والذي زادني وفضلني على صحابي بطول صحبتيه
ما خنت عهداً ولا نسيتك في يوم دعائي ولا هديتيه

ثم حمل إليه ما طلب .

بين الصداقة وبين العداوة والحسد :

أ ـ أصدقاؤه ومن مدحه :

الجاحظ :

من أصدقاء ابن الزيات الأوفياء والمعجبين به أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كان على صلة حميمة به طيلة إقامته في بغداد، وكان الجاحظ يرى أن الكُتَّاب أقدر على فهم الشعر من الرواة واللغويين، فقد نقل ابن رشيق قول الجاحظ : « طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد ابن عبد الملك الزيات »[2]، وكان الجاحظ يشيد بأسلوب ابن الزيات ورسائله، ومدحه في بعض رسائله، وقد رضي الجاحظ أن يكون كاتباً لابن الزيات، بعد أن رفض أن يكون كاتبا في ديوان المأمون، ولازم الجاحظ ابن الزيات وانقطع إليه، وقد أنعم ابن الزيات على الجاحظ وأعزه وأكرمه، وعرف فضله وأدبه، فبسط له في الرزق، وجعله في رغد العيش، فأقطعه أربعمائة جريب، ولما أهدى الجاحظ كتاب الحيوان لابن الزيات أعطاه خمسة آلاف دينار[3]، وكان الجاحظ يؤثر ابن الزيات بنوادر الكتب،

---

(١) الديوان ق ١٧٣، وانظر طبقات الشعراء ص٣٨٩، والأغاني ٢٣ / ٦٤ـ ٦٤، ومعجم الأدباء ٣ / ١٢٩٨ .

(٢) العمدة ٢ / ١٠١ ــ ١٠٥ .

(٣) معجم الأدباء ٥ / ٢١١٧ .

فقد أهدى له كتاب سيبويه، قال الجاحظ: «أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيات ففكرت في شيء أهديه له، فلم أجد شيئاً أشرف من كتاب سيبويه، وقلت له: أردت أن أهدي لك شيئاً، ففكرت، فإن كل شيء عندك، فلم أر أشرف من هذا الكتاب، وهذا الكتاب اشتريته من ميراث الفرَّاء، قال: والله ما أهديت إليَّ شيئاً أحبَّ إليَّ منه»[1]، وقد مدح الجاحظ ابن الزيات بنثره وشعره، ومن شعره هذان البيتان يذكر فيهما بره بإخوانه حين أقبلت عليه الدنيا:[2]

بدا حين أثرى بإخوانه ففلَّل منهم شَباةَ العدمْ

وأبصر كيف انتقالُ الزما نِ فبادرَ بالعُرفِ قبل الندمْ

وفي كتب الجاحظ ورسائله جملة من الرسائل وجهها إلى ابن الزيات، فيها دعابة ومدح وعتاب واعتذار، من ذلك ما روى الجاحظ نفسه فقال: «تشاغلت مع الحسن بن وهب أخي سليمان بن وهب بشُرْبِ النبيذ أياماً، فطلبني محمد بن عبد الملك لمؤانسته، فأُخبرَ باتصالِ شغلي مع الحسن بن وَهْب، فتنكَّر لي وتلوَّن عليَّ، فكتبت إليه رقعة نُسْخَتُها: «أعاذك الله من سوء الغضب، وعصمك من سَرَفِ الهوى، وصرفَ ما أعارك من القوَّةِ إلى حبِّ الإنصاف، ورجَّحَ في قلبك إيثار الأناة، فقد خفتُ ـ أيَّدك الله ـ أن أكون عندك من المنسوبين إلى نَزَق السفهاء ومجانبة سُبُل الحكماء»[3]، وهي رسالة طويلة، وكان الجاحظ يتبسط مع ابن الزيات وله دالّة عليه، ولم يكن متحفظا بعيدا عن قلب ابن الزيات، وفي قصة أبي العيناء دلالة واضحة على ذلك، قيل: سأل أبو العيناء الجاحظ كتاباً إلى محمد بن عبد الملك الزيات في شفاعة لصاحب له، فكتب الجاحظ الكتاب وناوله الرجلَ، فعاد به إلى أبي العيناء، وقال: قد أسْعَفَ، وقال: فهل قرأته؟ قال: لا، لأنه مختوم، قال: ويحك فَضُّ طينةٍ أولى من حمل ظِنَّةٍ، لا يكون (صحيفة المتلمس)، ففض الكتاب فإذا به: «موصل كتابي

---

(١) معجم الأدباء ٥/ ٢١٢٧، وفيات الأعيان ٣/ ٤٦٣.

(٢) زهر الآداب ٢/ ٥٤١.

(٣) زهر الآداب ٢/ ٥٣٩.

سألني فيه أبو العيناء، وقد عرفت سفهه وبذاءة لسانه، وما أراه لمعروفك أهلاً، فإن أحسنت إليه فلا تحسبه عليَّ يداً، وإن لم تحسن لم أعتدُّه عليك ذنباً، والسلام»(١).

وقد بقي الجاحظ وفياً لابن الزيات حتى بعد نكبته، فبعد مقتله توارى الجاحظ وهجر بغداد قاصداً البصرة، علَّه ينسى محنة صديقه، وقد عرف خصوم ابن الزيات انقطاع الجاحظ ووفاءه له، فقبضوا على الجاحظ، وجيء به ذليلاً مكبلاً بالأصفاد، وقد جرت محاورة طريفة بليغة تدل على حضور بديهة الجاحظ وقوة بيانه، روى أبو العيناء، قال: «كنت عند أحمد بن أبي دواد، بعد مقتل ابن الزيات، فجيء بالجاحظ مقيداً، وكان من أصحاب ابن الزيات، وفي ناحيته، فلما نظر إليه قال: والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة، كفوراً للصنيعة، معدداً للمساوىء، وما فُتِّني باستصلاحي لك، ولكن الأيام لا تصلح منك إلا لفساد طويتك، ورداءة دخلتك، وسوء اختيارك، وتغالب طبعك، فقال له الجاحظ: خفِّض عليك ـ أيَّدك الله ـ فوالله لأنْ يكون لك الأمر عليَّ خير من أن يكون لي عليك، ولأنْ أُسيءَ وتحسن، أحسن عنك من أن أحسن فتسيء، وأن تعفو عني في حال قدرتك أجمل من الانتقام مني. فقال له ابن أبي دواد: قبحك الله، ما علمتك إلا كثير التزويق للكلام، وقد جعلت بيانك أمام قلبك، ثم اصطنعت فيه النفاق والكفر، ما تأويل هذه الآية: ﴿**وكذلك أخذ ربِّك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، إنَّ أخذه أليم شديد**﴾(٢)، قال: تلاوتها تأويلها، أعزَّ الله القاضي، فقال: جيئوا بحداد، فقال: أعز الله القاضي، ليفك عني أو ليزيدني؟ فقال: بل ليفك عنك، فجيء بالحداد، فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنفَ بساق الجاحظ، ويطيل أمره قليلاً، فلطمه الجاحظ، وقال: اعمل عمل شهر في يوم، وعمل يوم في ساعة، وعمل ساعة في لحظة، فإن الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة، فضحك ابن أبي دواد وأهل المجلس منه، وقال ابن أبي دواد لمحمد بن أبي منصور، وكان حاضراً: أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه، ثم قال: يا غلام، صِرْ به إلى

---

(١) أمالي المرتضى ١/ ١٨٢ ـ ١٨٣، تاريخ بغداد ٣/ ١٧٥، نثر الدر ٣/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.
(٢) هود ١٠٢.

الحمَّام، وأمطْ عنه الأذى، واحملْ إليه تخت ثياب وطويلة[1] وخُفَّاً، فلبس ذلك فتصدر في مجلسه، وقال: هات الآن حديثك يا أبا عثمان»[2]. وقيل إن ابن أبي دواد سأل الجاحظ حين هرب بعد عذاب ابن الزيات: «لمَ هربت؟ فقال: خِفتُ أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور»[3]. وقد عفا ابن أبي دواد عن الجاحظ، ولكن الجاحظ لم يجد البديل عن صديقه ابن الزيات: الذي أحبه وأخلص له، وأعجب به، ووجد الحياة بعده كئيبة حزينة، ولم يجد عن صاحبه عوضاً، فآثر أن يتوارى عن مجتمع بغداد مرة أخرى، فتوجه إلى مدينته البصرة، وساءت أحواله هناك، وركبته الأوجاع والعلل وثقل الشيخوخة، فودع عهد الخير، فمات هناك حزيناً ضعيفاً سنة ٢٥٥هـ.

الحسن بن وهب:

ومن أصدقاء ابن الزيات الذين أخلصوا له ووفوا له حتى بعد النكبة والموت، الحسن بن وهب، وهو أبو علي الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن الحصين الحارثي، أحد الكتاب الشعراء الذين استكتبه الخلفاء، كان من وجهاء العصر الذين مدحهم الشعراء ورثوه، ومنهم أبو تمام والبحتري، وهو أخو سليمان بن وهب وزير المعتز والمهتدي، توفي نحو سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٥ م، كان الحسن صديقاً حميماً لابن الزيات، وكانت بينهما مودة، وجمعتهما مجالس الأنس واللهو والمرح، ولم تعكر هذه الصداقة جفوة أو حسد، قبل أن يلي ابن الزيات الوزارة وبعدها، وكانت بينهما معاتبات ومراسلات ومساجلات، وقد روى أبو الفرج طرفاً من ذلك ووصف أحوالهما، قال رواية عن هارون بن محمد بن عبد الملك: «دعا محمد بن عبد الملك قبل وزارته الحسن بن وهب في آخر أيام المأمون، فجاءه ودخلا حمَّاماً له، وأقاما على لهوهما، ثم طُلب الحسن بن وهب لعمل احتيج فيه إليه، فمضى، وبطل يومهم، فكتب الحسن إليه:[4]

---

(١) الطويلة: صفة للقلنسوة.

(٢) معجم الأدباء ٥/ ٢١٠٣ ـ ٢١٠٤.

(٣) أمالي المرتضى ٢/ ١٩٥.

(٤) الأغاني ٢٣/ ٧٢ ـ ٧٣.

سقياً لنَضْرِ الوجهِ بسَّامهِ مُهَذَّبِ الأخلاقِ قمقامهِ
تكسبه شكراً على أنها مطبعةُ السنِّ للوَّامهِ
زرناهُ في يومٍ علا قَدرُهُ من سائرِ الأيامِ في عامهِ
أسعدهُ اللهُ وأحظى بهِ وجادهُ الغيثُ بإرهامْهِ

.... الأبيات، فأجابه محمد بن عبد الملك: (١)

وزائرٍ لذَّ لنا يومُهُ لو ساعدَ الدهرُ بإتمامه
ماذا لقينا من دواوينه وخَطِّه فيها بأقلامه
أسرَّ ما كُنَّا فمن مازحٍ أو شاربٍ قد عبَّ في جامهِ
فارقَنا فالعين مطروفةٌ بواكفِ الدمع وسَجَّامهِ

وكان إذا أبطأ الحسن على ابن الزيات عتب عليه، فيرسل له الأبيات يعتذر إليه(٢)، وإذا مرض الحسن ولم يزره ابن الزيات، عتب عليه عتاباً شديداً في بعض شعره، من ذلك قوله:(٣)

أيهذا الوزيرُ أيدك اللـ ـهُ وأبقاك لي بقاءً طويلا
أجميلاً تراه يا أكرم النا سِ لكيما أراه أيضاً جميلا
إنني قد أقمتُ عشراً عليلاً ما ترى مرسلاً إليَّ رسولا

.... الأبيات، فأجابه ابن الزيات معتذراً ومداعباً ومواسياً:(٤)

دفعَ اللهُ عنك نائبةَ الدهـ ـرِ وحاشاكَ أن تكون عليلا
أُشْهِدُ اللهَ ما علمتُ وما ذا كَ من العُذْرِ جائزاً مقبولا
ولَعَمْري أنْ لو علمتُ فلازمْتُـ ـكَ حولاً لكان عندي قليلا

---

(١) الديوان ق١٤٥.
(٢) الأغاني ٢٣/٦٧ ـ ٦٩.
(٣) الأغاني ٢٣/٦٩
(٤) الأغاني ٢٣/٧٠ والديوان ق١٢٢.

إلى أن يقول:

فاجْعَلَنْ لي إلى التَّعَلُّقِ بالعُذْ ... رِ سبيلاً إنْ لم أجدْ لي سبيلا

فقديماً ما جادَ بالصفْحِ والعفْـ ... ـوِ وما سامحَ الخليلُ الخليلا

والمراسلات والمعاتبات بين ابن الزيات والحسن بن وهب كثيرة، ولم تقتصر على الشعر وحسب، بل شملت النثر أيضاً، وفيه تعبير صادق عما يكنُّهُ كلٌّ منهما للآخر، فقد كتب الحسن بن وهب إلى ابن الزيات يقول: «سروري أعاذ الله حياتك، إذا رأيتك، كوحشتي لك إذا لم أرك، وحفظي لك في مغيبك، كمودتي لك في مشهدك، وإني لصافي الأديم غير نغل ولا متغير، فامنحني من مودتك مزن لذاذة مشربك، وكن لي كأنا، فوالله ماعجت عن ناحيتك إلا وأنا محنيٌّ الضلوع إليك والسلام»(١). فكتب إليه ابن الزيات: «يا أخي ما زلتُ عن مودتك، ولا حلتُ عن أخوتك، ولا استبطأتْ نفسي لك، ولا استزدتها في محبتك، وإن شخصك لماثلٌ نصب طرفي، ولقل ما يخلو من ذكرك قلبي، ولله در الذي يقول:

أما والذي لو شاء لم يخلق النوى ... لئن غبتَ عن عيني لما غبْتَ عن قلبي

يذكرنيكَ الشوقُ حتى كأنني ... أناجيكَ من قربٍ وإنْ لم تكن قربي»(٢)

وبقي الحسن بن وهب وفياً لابن الزيات بعد نكبته، على الرغم من عداء ابن أبي دواد الشديد لابن الزيات، وقد صار ابن أبي دواد وزيراً، وتتبع أصحاب ابن الزيات وأصدقاءه ومعاقبتهم واضطهادهم، رغم كل ذلك لم يستطع الحسن بن وهب أن يخفي حبه لصديقه، فقد رثاه، وشاعت قصيدته في رثاء ابن الزيات، وإن أنكرها خوفاً من بطش السلطان، ولكنهم عرفت له لأنها مكتوبة بخطه، ومما جاء فيها:(٣)

يكادُ القلبُ من جزعٍ يطيرُ ... إذا ما قيلَ قد قُتِلَ الوزيرُ

أمير المؤمنين هدمت ركناً ... عليه رحاكمُ كانت تدورُ

---

(١) الظرف والظرفاء ص ٢٩٤.

(٢) الظرف والظرفاء ص ٢٩٤ والبيتان لمسلم بن الوليد في ديوانه ص٥٧.

(٣) الأغاني ٢٣ / ٧٩ ـ ٨٠.

سيبلى المُلْكُ من جزع عليهِ ويخربُ حين تضطربُ الأمورُ

راشد الكاتب :

وقد مر بنا أن من أصدقائه المقربين كان راشد الكاتب المعروف بأبي حكيمة، وكانت بينهما مداعبات ومراسلات شعرية، ولا نعيد الكلام الذي مضى في ذلك، ولا نريد أن نقف عند من كانت لابن الزيات بهم صلات رسمية عامة، وإنما وقفنا عند من كان صديقاً ودوداً له، ثم نقف عند من كان عدواً لدوداً له، ونذكر هنا أهم ما مدح به من شعر، ثم عند من هجوه من الشعراء.

من مدحه من الشعراء

فأما من مدحه وأثنى عليه من الكبار، فهما أبو تمام والبحتري، فأما أبو تمام، فله جملة قصائد في مدح ابن الزيات منها ما تناول شخصية ابن الزيات، ومنها ما تناول أدبه وأسلوبه باعتباره من الكُتَّاب المبدعين، فمن أماديحه في الإشادة بأدبه وروعة أسلوبه وما يخطه قلمه قوله: (١)

لك القلمُ الأعلى الذي بشُباتهِ ينالُ من الأمر الكُلى والمفاصلُ

لعابُ الأفاعي القاتلاتِ لُعابُهُ وأري الجنى اشتارتهُ أيدٍ عواسلُ

وحين ننظر في ديوان أبي تمام نجد جملة صالحة من القصائد في مدح ابن الزيات والإشادة بحزمه وشخصيته وبيان فضائله، من هذه القصائد الرائعة قصيدته التي أولها: (٢)

قد نابت الجزع من أروية النُّوَبُ واستحقبتْ جِدَّةً من رَبْعِها الحِقبُ

ألوى بصبركَ إخلاقُ اللوى وهفا بلُبِّكَ الشوقُ لما أقفر اللَّبَبُ

وفيها يعدد صفات ابن الزيات وحزمه وعدله وعلمه وحسن تدبيره:

---

(١) ديوان أبي تمام ٢ / ٥٧ ـ ٥٨ .

(٢) ديوان أبي تمام ١ / ١٣١ ، ١٣٥ ـ ١٣٧ .

وزير حقٍّ ووالي شـــرطةٍ ورحـــا ... ديوان ملكٍ وشيعيٌّ ومحتسبُ[1]

ثبتُ الجَنانِ إذا اصطكَّتْ بمظلمةٍ ... في رحْلِه ألسُنُ الأقـوامِ والرُّكَبُ

لا المنطقُ اللغوُ يزكو في مقاومهِ ... يوماً ولا حُجَّةُ الملهوف تُسْتَلَبُ

كـأنَّمـا هو في نادي قـبـيلتـهِ ... لا القلبُ يهفو ولا الأحشاءُ تضطربُ

وتحتَ ذاكَ قـضـاءٌ حـزَّ شـفـرته ... كـما يعَضُّ بأعلى الغاربِ القتَبُ

لا سَورةٌ تُتَّقـى مـنـــهُ ولا بَلَهُ ... ولا يحـيفُ رضـاً منهُ ولا غـضبُ

ألقى إليكَ عُرى الأمرِ الإمامُ فقد ... شُدَّ العِناجُ من السلطانِ والكَرَبُ

والقصيدة طويلة عدتها ستون بيتاً، يشيد فيها بابن الزيات وبالخليفة المعتصم. ومدحه بقصائد أخرى كلها قصائد جياد فيها الإشادة بأخلاقه وكرمه وسياسته وأدبه، ولم يترك أبو تمام فضيلة من فضائل ممدوحه إلا ذكرها، ويحسنْ أن ننوه بقصيدة من قصائده الجياد في مدحه، تلك القصيدة الفائية التي أجاد صياغتها، وقد بدأها بوصف الطبيعة ووقف عند الربع والديار، ثم توصل إلى مدح ابن الزيات فأشاد بخصاله وكرمه وعدله وعلو كعبه في الأدب، وذلك حيث يقول:[2]

أمَّتـكَ والشيطانُ يرهـبُ ظِلَّهـا ... فأتَتْكَ وهي تفوقُ حِلْمَ الأحنفِ

من كان يقصد في نصيحته لها ... فمحمد في النصح عينُ المسرفِ

نال الردى وحوى الغِنى بمحمدٍ ... عنـد الخليفـة مذنبون ومعتفِ

سكَّنْتَ أحشاءَ الرعيَّةِ في حشا ... قلبٍ ذكيٍّ عن لسانٍ مُرهَـفِ

لم يبلغِ القلمَ الذي يجدي بهِ ... في اللـهِ ألفـا مرهـفٍ ومثقَّفِ

---

(١) يحسن أن نقف هنا عند كلمة (شيعي) فلم يُعرف عن ابن الزيات أنه تشيع، لأنه كان جهميا معتزليا، فهل للكلمة مدلول آخر، أم يقصد الشاعر أن ابن الزيات قد ألمَّ بكل هذه المهن والخبرات والفرق؟.

(٢) ديوان أبي تمام ٤٣٤ ـ ٤٣٧ . وانظر في ديوانه قصائد أخر في مدح ابن الزيات ١ / ١٦٠، ٢ / ١٦، ٤٧ ـ ٤٩، ٥٣ ـ ٦١.

بأكُفٍّ أبدالٍ إذا أمُّوا بهـا ملمومةً عَمِلوا بها في المصحفِ
تستلُّ خائنةَ العيونِ بمُقْلَةٍ تحوي ضمائرها ولَمّا تطرِفِ

وشاعر آخر مدح ابن الزيات وأجاد في مدحه وأطنب في ذكر فضائله، وأعجب بسياسته وحسن تدبيره، ذلك هو البحتري، فقد مدحه بقصيدة رائعة يتغنى بفضائله، ويبدؤها بقوله:(١)

بعض هذا العتاب والتفنيدِ ليس ذمُّ الوفاءِ بالمحمودِ
ما بكينا على زرودَ ولكنّا بكينا أيامنا في زرودِ

ويتوصل إلى مدحه بقوله:

وإذا استصعبتْ مقادةُ أمرٍ سَهَّلتْها أيدي المهارى القودِ
حاملاتٌ وفدَ الثناءِ إلى أبلـ ـجَ صَبٍّ إلى ثناءِ الوفود
عَلقوا من محمدٍ خيرَ خيلٍ لرواقِ الخلافةِ الممدودِ
لم يخنْ ربَّها ولم يعمل التد بيرَ في حَلِّ تاجها المعقودِ
مُصْلِتاً بينها وبين الأعادي حدَّ رأيٍ يَفلُّ حَدَّ الحديدِ
فهي في عزمِ رأيهِ في جنودٍ قُمْنَ من حولها مقامَ الجنودِ

ثم يمضي في ذكر حسن سياسته، وثاقب ذهنه وبراعته في تدبير الأمور، وأداء حق الدولة وحق الناس، والمساواة في الحقوق بين القاصي والداني:

صارمَ العزمِ حاضرَ الحزمِ ساري الفكرِ ثبتَ المقامِ صلبَ العودِ
دقَّ فهماً وجلَّ حلماً فأرضى اللـ ـهَ فينا والواثقَ بن الرشيدِ
وجّهَ الحقَّ بين أخذٍ وإعطاءٍ وقصْدٍ في الجمعِ والتبديدِ
واستوى الناسُ فالغريبُ قريبٌ عندهُ والبعيدُ غيرُ بعيدِ
لا يميلُ الهوى به حين يُمضي الرأي بين المُقِلِّ والممدودِ

ولم يترك فضيلة من الفضائل إلا أسبغها على ممدوحه، ثم يتناول أدبه وبراعته في

---

(١) ديوان البحتري ص ٢٧٨ ـ ٢٨١ ط بيروت ١٩٨٧.

الكتابة، فيجعله مبرزا فاق عبد الحميد في جودة أسلوبه وبراعته:

لتـفننت في الكتـابةِ حـتى عطَّلَ الناسُ فنَّ عبـدالحـميـدِ
في نظامٍ من البـلاغـةِ مـا شـ ـكَّ امـرؤٌ أنهُ نظامٌ فـريدِ
وبديعٍ كـأنَّ الزهرُ الضـاحـ ـكُ في رونقِ الربيعِ الجـديدِ
مشرقٌ في جوانب السمعِ ما يخلـ ـقُهُ عَودُهُ على المسـتـعـيـدِ
مـا أعيـرتْ منهُ بطونُ القـراطيـ ـسِ ومـا حُمِّلتْ ظُهـورُ البـريدِ
مستـميلٌ سمع الطروبِ المُعَنَّى عن أغـاني مـخـارقٍ وعـقـيـدِ

ويفصل القول في براعة أسلوبه وما فيه من بيان ومنطق سديـد وحجج بارعة:

حججٌ تُخْـرِسُ الألـدَّ بألـفـاظٍ فُرادى كـالجوهـرِ المعدودِ
ومعـانٍ لو فصَّلَتْهـا القوافـي هَجَّنَـتْ شعْرَ جرولٍ ولبيدِ
حُزْنَ مستعملَ الكلامِ اختيـاراً وتجنَّبْنَ ظُلْمـةَ التعقيـدِ
وركبْنَ اللفظَ القريبَ فأدركْنَ بـه غـايـةَ المُـرادِ البـعـيـدِ

ويعَرِّض بحاسديهِ ومنافسيهِ الذين يئسوا من النيلِ من مجدهِ وفضلهِ:

قد تلقيـتَ كـلَّ يـومٍ جـديـدٍ يـا أبـا جعفـرٍ بمجـدٍ جـديـدِ
يئسَ الحاسدونَ منكَ ومـا مجـ ـدُكَ مما يرجـوهُ ظَـنُّ الحسـودِ
وإذا استطـرفـتْ سيـادةُ قـومٍ بِنْـتَ بالسؤددِ الطريقِ التليدِ
وذوو الفضلِ مجمعونَ على فضـ ـلكَ مـن بـينِ سيِّـدٍ ومسـودِ
عرف العالمونَ فضلكَ بالعِلْـمِ وقـالَ الجُـهَّـالُ بالتقـليـدِ

ب ــ أعداؤه ومنافسوه:

أحمد بن أبي دُوَاد

ومثلما كان لابن الزيات أصدقاء أودَّاء، ومداحون يتغنون بفضائله وأمجاده،

كان له خصوم وأعداء ألدَّاء، ومنافسون يتسقطون زلاته، ويكيدون له، وينظمون أشعاراً في هجائه والانتقاص منه ، فهم بين حاقد وحاسد، وناقم متضرر، وكان من أبرز أعدائه وأشدهم خصومة وكيداً، أحمد بن أبي دواد الإيادي، أحد القضاة المشهورين من المعتزلة، ورأس فتنة القول بخلق القرآن، كان فصيحاً قوي الحجة، عالماً بالأخبار والأنساب، وهو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء، وكانوا لا يبدؤهم أحد حتى يبدؤوه، كان شديد الدهاء، اتصل أولاً بالمأمون، فلما قرب موته أوصى به أخاه المعتصم فجعله قاضي قضاته، وجعل يستشيره في أمور الدولة كلها، ولما توفي المعتصم اعتمد عليه الواثق، وكان له أثر في تولية المتوكل، وكان جهمياً بغيضاً حمل الخلفاء على امتحان الناس بخلق القرآن، وكان سبباً في إيذاء أحمد بن حنبل ونكبة ابن الزيات، وأُفلجَ في أول خلافة المتوكل، وتوفي مفلوجاً ببغداد سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م[١]. وكل من ترجم لابن أبي دواد ولابن الزيات يذكر العداوة الشديدة والمنافسة والمكايد بين الرجلين، وخاصة حين صار ابن الزيات وزيراً، ولاشك أن المنافسة كانت على التقرب إلى السلطان وإبعاد الخصم، وكان للشعر أثره في هذه الخصومة، ويبدو أن ابن الزيات كان قد هجا ابن أبي دواد بقصيدة طويلة عدتها خمسون بيتاً، وقيل تسعون بيتاً، ولم نجد لتلك القصيدة أثراً، ولكننا نقف على رَدَّ ابن أبي دواد عليها، وقد حفظ الأصفهاني رَدَّ ابن أبي دواد في بيتين، وساق الرواية على هذا الوجه، قال: أخبرني عمي عن أبي العيناء قال: كان محمد بن عبد الملك يعادي أحمد بن أبي دواد ويهجوه، فكان أحمد يجمع الشعراء ويحرضهم على هجائه، ويصلهم، ثم قال فيه أحمد بيتين، كانا أجود ما هُجي به، وهما:[٢]

أحسنُ من خمسين بيتاً سدى جَمْعُكَ إيَّاهُنَّ في بيتِ

ما أحوجَ الناسَ إلى مطرةٍ تُذْهِبُ عنهم وضرَ الزيتِ

---

(١) انظر في ترجمته ابن خلكان ١/ ٢٢، تاريخ بغداد ٤/ ٤١ ـ ١٥٦، البداية والنهاية ١٠/ ٣١٩، ثمار القلوب ص١٦٣.

(٢) الأغاني ٢٣/ ٦٢، وجاءت برواية (تسعين بيتاً) في الوافي ٤/ ٣٢، والعقد الفريد ٣/ ١٤٤، والعمدة ١/ ٣٤٨، والخزانة ١/ ٤٥٠. والوضر: الدرن والوسخ من الدسم وغيره.

والملاحظ أن كل من هجا ابن الزيات لم ينتقص من أصله ونسبه والشك في عروبته، وإنما انصب هجاؤهم على مهنة أبيه الزيات، فرد عليه ابن الزيات بهجاء شديد جاء فيه:(١)

يا أيُّها المأفونُ رأياً لقد عرَّضْتَ في نفسك للموتِ
قيَّرتمُ المُلكَ فلم نُنْقِه حتى غسلنا القارَ بالزيتِ
الزيتُ لا يُزْري بأحسابنا أحسابُنا معروفةُ البيتِ

ومما زاد في حسد ابن أبي دواد، وشدة بغضه، أن سلطان ابن الزيات قد تمكن من نفس الخليفة الواثق، وزادت مكانته وهيبته، حتى إنه أمر أن لا يرى أحدٌ من الناس محمد بن عبد الملك الوزير إلا قام له، وكان هذا الأمر يشمل أيضاً عدوُّه اللدود ابن أبي دواد، وكا ابن أبي دُوَاد – وهو قاض آنذاك ـ إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلي، فقال فيه ابن الزيات:(٢)

صلَّى الضحى لما استفادَ عداوتي وأراهُ يَنْسُكُ بعدها ويصومُ
لا تَعْدِمَنَّ عداوةً مشؤومةً تركتكَ تقعدُ تارةً وتقومُ

وكان ابن أبي دواد لا يكلم الخلفاء في حضرة ابن الزيات في حاجة، كراهة أن يعلم بذلك، ومخافة أن يفسد عليه أمره، قال إبراهيم الموصلي: سمعت ابن أبي دواد في مجلس المعتصم وهو يقول: إني لأمتنع عن تكليم الخلفاء بحضرة ابن الزيات الوزير في حاجة، كراهة أن أعلمه ذلك، ومخافة أن أعلمه التأتي لها(٣)، وكانت شاعرية ابن الزيات تسعفه في هجاء خصمه، بينما لا يستطيع ابن أبي دواد هجاءه إلا بالاستعانة بالشعراء، ولذلك وصلنا هجاء كثير لابن الزيات في ابن أبي دواد والانتقاص منه، من ذلك قوله:(٤)

---

(١) الديوان ق ٣٠.
(٢) العمدة ١ / ٧٣٩، وفيات الأعيان ١ / ٨٥، الوافي ٤ / ٣٢، الديوان ق ١٣١.
(٣) أمراء البيان ص ٢٩٠.
(٤) الديوان ق ١٦٠.

أبلغْ دعيَّ إيادٍ إنْ مررتَ بهِ   قولَ امرىءٍ ناصحٍ للهِ والدِّينِ
لن تَصْلُحَ الأرضُ ما أُسْكِنْتَ ظاهِرَها   ولا ترى العدلَ أو تلحقْ بإفشينِ
ما زلتَ تضمرُ للخذلانِ عن دَخَلٍ   في القلبِ منك لهذا الدينِ مكنونِ
وكنتَ في ذاك لما أنْ قصدتَ له   كالعَنْزِ إن بحثَتْ عن حَدِّ سكِّينِ
نحن الذين إذا عُدَّ العفافُ يُرى   فينا العفافُ ومأوى كلِّ مسكينِ

وكان ابن الزيات يلح على غمز ابن أبي دواد في نسبه، مدعيا أنه ليس من إياد، وإنما هو دعي، ولذلك يقول:(١)

تأيَّدَ وادَّعى القُرْبا   وأثْرى واستفادَ أبا
لتَهْنِكَ دولةٌ حَدَثَتْ   فأحدثَ عِزُّها نَسَبا
صنائِعُهُ إلى الأنذا   لِ تُخْبِرُ أنَّهُ كَذِبا

وقد شاعت هذه العداوة بين الرجلين، وعلم بها الواثق، فجمع الواثق بين الخصمين وأصلح بينهما، فكف ابن الزيات عن ذكر خصمه، ولكن ابن أبي دواد كان حين يخلو بالواثق يغريه به، وأدخل في روع الخليفة أن ابن الزيات عزم على الفتك به والتدبير عليه، وقيل: إن الواثق قبض على ابن الزيات، ثم أطلقه بعد مدة وأعاده إلى حاله(٢)، وقد شكك ابن الأبار في صحة رواية القبض على ابن الزيات، فقال: «وقبض الواثق عليه ليس مشهوراً، لأنه من خلفاء العباسيين الذين لم ينكبوا وزيراً، وهم قليل كالهادي والأمين قبله والمعتضد والمكتفي بعده»(٣)، وظل ابن أبي دواد يغتنم الفرص للإيقاع بابن الزيات، وتشويه صورته في ذهن الواثق، ووجد في تحريض الشعراء على هجاء ابن الزيات سبيلاً، فقد أمر علي بن الجهم أن ينظم في هجائه وتحريض الخليفة عليه، فقال فيه من أرجوزة:(٤)

---

(١) الديوان ق ١٠.
(٢) أعتاب الكتاب ص ١٣٨.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) الأغاني ٢٠/٢٨٩، أعتاب الكتاب ص ١٣٧، ديوان علي بن الجهم ص١١٨-١١٩.

لعائن الله موقرات مصبّحات ومُهَجِّرات

على ابن عبدالملك الزيّاتِ عرَّضَ شَمْلَ المُلْكِ للشتات

وفيها يقلل من شأن ابن الزيات ويعرض بسوء أفعاله ويستنجد بالواثق للخلاص منه :

هارون يابن سيِّدِ الساداتِ أما ترى الأمورَ مهملاتِ

تشكو إليك عدم الكفاةِ

فهمَّ الواثق بالقبض عليه، وقال : « لقد صدق قائل هذا الشعر، ما بقي لنا كاتب » فطرح ابن الزيات نفسه على إسحاق بن إبراهيم، وكانا مجتمعين على عداوة ابن أبي دواد، فقال للواثق : أمثل ابن الزيات مع خدمته وكفايته يُفْعَلُ به هذا، وما جنى عليك ولا خانك، وإنما دلَّك على خونة أخذتَ ما اختانوه، فهذا ذنبه، وبعد فلا ينبغي لك أن تعزلَ أحداً حتى تعدَّ لمكانه جماعة يقومون مقامه، فمن لك بمن يقوم مقامه ؟ فمحا ماكان في نفسه عليه ورجع له »(١).

وبموت الواثق يأفل نجم ابن الزيات، ويتألق نجم ابن أبي دواد، وقيل إن ابن الزيات أشار بتولية ابن الواثق، وكان صغيراً، واهتبلها ابن أبي دواد، فسعى إلى تولية جعفر المتوكل، وساق ابن خلكان رواية هي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، قال : « ومن عجائب الظفر ما حكاه الصولي أن المتوكل قال : ركبت إلى دار الواثق أزوره في مرضه الذي مات فيه، فدخلت الدار وجلست في الدهليز ليؤذن لي، فسمعت بكاءً بنياحة تشعر بموته، فتحسستُ وإذا إيتاخ ومحمد بن عبد الملك الزيات يأتمران فيَّ، فقال محمد : نقتله في التنور، وقال إيتاخ : بل ندعه في الماء البارد حتى يموت ولا يُرى عليه أثر القتل، فبينما هم كذلك إذ جاء أحمد بن أبي دواد ــ وكان القاضي يومئذ ــ فمنعه الخدم الدخول، فدافعهم حتى دخل فجعل يحدثهما بما لا أعقله، لما داخلني من الخوف واشتغال البال بأعمال الحيلة في الهرب والخلاص مما ائتُمر به فيَّ، فبينما

---

(١) الأغاني ٢٠ / ٢٨٩، أعتاب الكتاب ص ١٣٧.

أنا كذلك، إذ خرج الغلمان يتعادون إليَّ ويقولون: انهض يا مولانا، فما شككت أن أدخل وأبايع ولد الواثق، ويُنفَّذ فيَّ ما قد قرر، فدخلت فلقيني أحمد بن أبي دواد، فقبَّل يديَّ وأمسكهما إلى أن أتى إلى السرير، وقال لي: اصعد إلى المكان الذي أهلك اللهُ له، فلما صعدت وجلستُ سلَّمَ عليَّ بالخلافة، وجاء محمد بن عبد الملك الزيات وإيتاخ فسلَّما عليَّ أيضاً، ثم دخل القواد فسلموا ثم الناس على طبقاتهم.... قال المتوكل: فبقي ما قاله ابن الزيات وإيتاخ في نفسي، فقتلتهما بما اعتزما به من قتلي، فقتلت ابن الزيات في التنور وإيتاخ بالماء البارد»[1]، ولم يُنَكِّل المتوكل بابن الزيات مباشرة، بل مكث ابن الزيات وزيراً للمتوكل أربعين يوماً[2]، ويبيِّن أبو الفرج أن ابن أبي دواد كان يغري المتوكل بقتل ابن الزيات ومصادرة أمواله، وكان يظن أن له أموالاً طائلة، قال: «فلما ولي المتوكل الخلافة خشي إنْ نكبه عاجلاً أن يستتر أسبابه فتفوته بغيته فيه، فاستوزره وخلع عليه، وجعل ابن أبي دواد يغريه به، ويجد لذلك عنده موقعاً واستماعا، حتى قبض عليه وقتله، فلم يجد له من أملاكه كلها من عين ووَرِق[3] وأثاث وضيعة إلا ما كانت قيمته مائة ألف دينار، فندم على ذلك، ولم يجد منه عوضاً، وكان أمره مما يعتد على أحمد بن أبي دواد، ويقول: أطمعتني في باطل، وحملتني على أمر لم أجد منه عوضاً»[4]. وهكذا كان ابن أبي دواد عدواً لدوداً امتلأ قلبه حقداً وحسداً على ابن الزيات، ولم يهدأ له بال حتى نَكَّل بخصمه وشفى بقتله ومصادرته غليله، ثم تتبَّع أصحاب ابن الزيات فاضطهدهم وأساء إليهم.

إبراهيم الصولي:

وخصم آخر من خصوم ابن الزيات الذي أطلق لسانه وكيده للإيقاع به، هو إبراهيم بن العباس الصولي الشاعر، كان إبراهيم كاتباً حاذقاً بليغاً فصيحاً، تأدب على

---

(١) وفيات الأعيان ١ / ٤٧٨، الهفوات النادرة ص ٣٦٢ ـ ٣٦٥.
(٢) الفهرست ص ١٣٦، معجم الشعراء ص٣٦٥، تاريخ بغداد ٣ / ١٤٥.
(٣) العين: ما ضرب نقداً من الدنانير، والورق: الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة.
(٤) الأغاني ٢٣ / ٧٢ ـ ٧٣.

القاسم بن يوسف وعنه أخذ، وهو وأخوه الأكبر عبد الله بن العباس من صنائع الفضل بن سهل ذي الرياستين، وله فيه مدائح جياد، كتب إبراهيم للمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وتنقل في الأعمال الجليلة والدواوين، وكان متشيعاً، وكان له ولدان توفيا في حياته فبكاهما(١).

كان إبرهيم صديقاً لمحمد بن عبد الملك الزيات قبل وزارته، فلما ولي الوزارة في أيام الواثق، كان إبراهيم على خراج الأهواز، وفي سنة ٢٢٩هـ نصب ابن الزيات لأصحاب المظالم العداوة، فكُشفوا وحبسوا وأُقيموا للناس، ولقوا كل جهد، ومن جملتهم صديقه إبراهيم بن العباس الصولي، نسي صداقته في مطالبته بما تأخر في ذمته من حق بيت المال، فاستهدف لهجائه، وقيل إنه كان يعذبهم في التنور ليستخرج منهم الأموال التي اختانوها، ووجه ابن الزيات إلى إبراهيم الصولي أبا الجهم أحمد بن سيف اليحصبي ما عليه، وأمره بكشفه، فتحامل أبو الجهم عليه تحاملاً شديداً، فاعتُقِل وأُوذي، فكتب الصولي إلى ابن الزيات يستنجد به ويستعطفه:

فلو إذ نبا دهْرٌ وأُنْكِرَ صاحبٌ وسُلِّطَ أعداءٌ وغابَ نصيرُ

تكون عن الأهوازِ داري بنجوةٍ ولكنْ مقاديرٌ جرتْ وأمورُ

وإني لأرجو بعد هذا محمداً لأفضلِ ما يُرجى أخٌ ووزيرُ

فأقام محمد على قصده وتكشفه، والإساءة إليه، حتى بلغ منه كل مكروه، ولجَّ أبو الجهم في التحامل عليه، وانفرجت الحال بينهما على ذلك، وهجاه إبراهيم هجاء كثيراً(٢)، وكتب إبراهيم إلى ابن الزيات يعرِّفه بما فعل أبو الجهم، ويشكوه إليه، ويقول: إن أبا الجهم كافر لا يبالي ما عمل، ودليل كفره أنه قال لما مات غلامه يخاطب ملك الموت:(٣)

تركتَ عبيدَ بني طاهرٍ وقد ملؤوا الأرضَ عرضاً وطولا

---

(١) الطرائف الأدبية ص١١٨ ـ ١١٩.

(٢) الأغاني ١٠ / ٦٢، معجم الأدباء١ / ٧٢.

(٣) الأغاني ١٠ / ٦٢، معجم الأدباء ١ / ٨٢.

وأقبلتَ تسعى إلى واحدٍ ضراراً كأني قتلتُ الرسولا

فسوف أدينُ بتركِ الصلاة وأصطبحُ الخمرَ صرفاً شَمولا

فكان محمد لعصبيته على إبراهيم وقصده له يقول: ليس هذا الشعر لأبي الجهم، وإنما إبراهيم قاله ونسبه إلى أبي الجهم.

وكان الصولي يقر بذنبه وتقصيره في حق بيت المال، وحاول أن يصلح ما بينه وبين ابن الزيات، وكتب له رسائل وأشعاراً يستعطفه، علَّهُ يصفحُ عنه، ولكن ابن الزيات لم يلتفت لاعتذار صاحبه الذي كتب إليه مادحاً ومستعطفاً:(١)

فهبني مسيئاً كالذي قلتَ ظالماً فعفواً جميلاً كي يكونَ لك الفضلُ

فإن لم أكنْ بالعفوِ منك لسوء ما جنيتُ بهِ أهلاً فأنتَ لهُ أهل

وكان ابن الزيات قد أغرى الواثق بالتنكيل بإبراهيم الصولي، وكان إبراهيم يعاتبه على ذلك ويداريه، ثم وقف الواثق على تحامل ابن الزيات على الصولي، فرفع يده عنه، وأمر أن يُقْبلَ منه ما رفعه، وردَّه إلى الحضرة مصوناً، فلما أحس إبراهيم بذلك بسط لسانه في محمد بن عبد الملك الزيات، وحسن ما بينه وبين أحمد بن أبي دواد خصم ابن الزيات اللدود، وهجا إبراهيم محمداً هجاء كثيراً، من ذلك قوله:(٢)

قدرتَ فلم تضررْ عدوّاً بعذرةٍ وسُمْتَ بها إخوانكَ الذُّلَّ والرَّغْما

وكنتَ مليئاً بالتي قد يعافُها من الناسِ من يأبى الدنيَّةَ والذمَّا

وكان ابن الزيات يغضب ويعادي من يصاحب ابن أبي دواد، وكذلك كان ابن أبي دواد يعادي أصحاب ابن الزيات، وتصادف أنْ رأى ابن الزيات يوماً إبراهيم الصولي وهو خارج من دار ابن أبي دواد، فتبيَّن إبراهيم في وجه محمد الغضب، فلم يخاطبه في العاجل بشيء، فلما انصرف إلى منزله، كتب إليه:(٣)

---

(١) الطرائف الأدبية ١٨٦ ـ ١٨٧، معجم الأدباء ١ / ٨١.

(٢) الأغاني ١٠ / ٧٠.

(٣) الأغاني ١٠ / ٧٥، الطرائف الأدبية ١٦٢.

دعني أواصلُ من قطعـ ـتَ يـراك بـي إذ لا يراكـا

إنـي متـى أهـجـر لهجـ ـرِكَ لا أضرُّ بـه سواكـا[1]

وإذا قطعتكَ في أخيـ ـكَ قطعتُ فيكَ غداً أخاكا

وصار إبراهيم الصولي يتعقب ابن الزيات ويتسقط عثراته، ويترصده للإساءة إليه والإيقاع به، وقيل إن ابن الزيات كان قد أودع مالاً عظيماً وجواهر نفيسة، وفرَّق ذلك في ثقاته من أهل الكرخ، ومعامليه من التجار، وذلك حين رأى تغيّراً من الواثق فخافه، فاهتبل ذلك إبراهيم الصولي، فقال أبياتاً وأشاعها، وأراد أن تبلغ الواثق ليصادر ابن الزيات وينكل به، ومما قاله في ذلك: [2]

نصـيـحـة شـانهـا وزيرُ مستحفظٌ سارقٌ مغيرُ

ودائـعُ جـمَّةٌ عظامٌ قد أُسبِلتْ دونها الستورُ

تسـعـة آلافِ ألفٍ خلالهـا جـوهرٌ خطيـرُ

بجانبِ الكرخِ عندَ قومٍ أنت بما عندهم خبيـرُ

والمَلِكُ اليومَ في أمورٍ تَحْدُثُ من بعدها أمورُ

قـد شـغَلَتْهُ مُحقَّراتٌ وصاحِبُ الكارةِ الوزيرُ

ولكن هذه الوشاية لم تلقَ لدى الواثق أذناً صاغية، ومضى الصولي في عداوته وهجائه لابن الزيات، وهو يجمع في هجائه بين النصح والوعيد، في مثل قوله: [3]

أبا جعفرٍ خَفْ خَفْضَةً بعدَ رِفْعَةٍ وقصِّرْ قليلاً عن مدى غُلْوائكا

فإنْ كنتَ قد أُوتيتَ عِزّاً ورِفْعَةً فإنَّ رجائي في غَدٍ كرجائكا

وصدق ظن الصولي، فقد نُكِبَ ابن الزيات بعد وفاة الواثق، وبيد أخيه المتوكل،

---

(١) في الطرائف: (إني متى أحقد لحقدك لا أضر به سواكا).

(٢) الأغاني ١٠ / ٨٠، الطرائف الأدبية ص١٥٧.

(٣) معجم الأدباء ١ / ٧٤، الطرائف ص١٦١ مع خلاف في الرواية.

ففرح الصولي وقال فيه شامتاً:[١]

لَـمَّـا أتاني خبرُ الزيَّـاتِ وأنَّـهُ قد عُـدَّ في الأمـواتِ

أيقنتُ أنَّ موتهُ حياتي

لقد كان الصولي أشدَّ أعدائه من الشعراء الكتَّاب، وإن لم يكن وحده من هجا ابن الزيات من الشعراء، سواء من هجاهُ لأمرٍ في نفسه، أو بتحريض من خصمه اللدود أحمد ابن أبي دُوَاد، ومن هؤلاء الشعراء علي بن الجهم، ودِعْبِل الخزاعي، وعلي بن جبلة، ودندن، فأما علي بن الجهم، فقد كان يبغض ابن الزيات، وكان مقرباً من خصمه ابن أبي دواد، واستخدمه هذا أداة لإيذاء ابن الزيات وهجائه، وقد مر بنا أن ابن الزيات لما هجا ابن أبي دواد، ورد عليه الأخير بالبيتين المشهورين (أحسن من تسعين بيتا سدى ....)، أن هذين البيتين كانا من نظم عليٍّ بن الجهم وهما في ديوانه وهناك مصادر أخرى تنسبهما له[٢]، وما كان ابن أبي دواد إلا محرضاً وموجهاً.

علي بن الجهم:

وكان ابن الزيات مبغضاً لعلي بن الجهم، ومنحرفاً عنه، يذكره بسوء عند الخليفة الواثق، وكان ابن الجهم قد مدح الواثق، ولكن ابن الزيات لم يتح للشاعر الفرصة ليحظى لدى الخليفة، فراح ابن الجهم يهجو ابن الزيات ويبالغ في هجائه، دون أن يخشى صولة الوزير الشديد، وكان في سيرة ابن الجهم ما يدل على جسارته وتطاوله على رجال الدولة وبطانة الخلفاء والوزراء والقضاة، ولم يكن ابن الزيات الوحيد من مهجوي ابن الجهم، فقد هجا أبا أحمد بن الرشيد، وعبيد الله بن خاقان وزير المتوكل، وأحمد بن أبي دواد قاضي القضاة، وابنه أبا الوليد، وعمر بن الفرج الرُّخَجي وغيرهم[٣]، ومن شتائم ابن الجهم في ابن الزيات، ويذكر توقيعاته، قوله: [٤]

---

(١) معجم الأدباء ١ / ٧٤، الطرائف ص١٨٢.

(٢) انظر ديوانه ص١٢٠، والعقد الفريد ٦ / ١٥١.

(٣) انظر مقدمة ديوانه ص٤٠ ـ ٤١.

(٤) الأغاني ١٠ / ٢٦٧، وديوان ابن الجهم ص١١٨ ـ ١١٩.

لعـــائن الله مـــتـــابعـــات   ـــــصَبِّحــــات ومُهَجَّرات
على ابنِ عـــبـــدالملكِ الزيَّات   عَرَّضَ شَمْلَ المُلْكِ للمشتَّـتــات
وأنفـــذَ الأحكامَ جـــائرات   على كـــتـــاب اللهِ زاريات
وعن عقـولِ الناسِ خارجـاتِ   رمي الدواوينَ بتـوقـيـعـات
مـــعـــقَّدات كَرُقى الحـــيَّات   سبحـانَ من جَلَّ عن الصِّفات
بعد ركـوب الطَّوفِ في الفُرات   وبعـــدَ بيعِ الزيت بالحــبَّات
صرتَ وزيراً شـامخَ الثبـات   هارونُ يا بنَ سـيِّدِ السَّادات
أمـا ترى الأمـورَ مـهـمـلات   تشكو إليكَ عــدمَ الكُفـاة

ويحرض الخليفة على الإيقاع به وجلده بالسياط جلداً شديداً تبقى آثارها في متنيه:

فعاجِلِ العِلْجَ بمرهَفـات   من بعدِ ألفٍ صُخَّبِ الأصوات
بمثمـراتٍ غيرِ مورقـات   تُـرى بمتنيـه مُرَصَّفــات
ترَصُّفَ الأسنانِ في اللثات

ومن ذكره التوقيعات في هذه الأرجوزة نرجِّح أن ابن الزيات كان قد رفض طلباً لابن الجهم، أو منعه صلة أو حاجة كان يتطلع إليها.

ولعلي بن الجهم قصيدة في مدح المتوكل، يبدو أنه قالها بعد نكبة ابن الزيات، وفيها يعرِّضُ بابن الزيات ويذكر مساوئه، ويهجو عمر بن الفرج الرخجي أيضاً، ويبدأ القصيدة بقوله:(١)

هذا العقيقُ فعَدُ أيْـــ   ـدي العيسِ عن غُلوائها
وامنع نواجيها النَّجاءَ   فـلاتَ حينَ نَجائهــا

---

(١) ديوان ابن الجهم ص ٣٧ ـ ٤٠، والرخجي: هو عمر بن الفرج، وكان من بطانة الواثق وكَّله على أخيه المتوكل يكتب بأخباره إليه، فلما أفضت الخلافة إلى المتوكل أمر بحبسه وقبض ضياعه وأمواله سنة ٢٣٣هـ وهي السنة التي قتل فيه ابن الزيات أيضاً، ينظر الطبري ١١/ ٢٧، ٣٠.

ويتوصل إلى الهجاء بقوله:

مــلــكٌ أعـــــــدتُه المــلـو ... ك لخـــوفــهـــا ورجـــائهـــا
تـدنيـــــه أمَّةُ أحـــمـــــدٍ ... للثــــأر من أعـــدائهـــا
من بعــدِ مــا طعنتْ قــرو ... نُ الشــركِ في أحـشـائهـا
وتحــــكُّمَ الـــزيَّاتِ فـــي ... أمـــوالهـــا ودمــــائهـــا
زارٍ عــلــى سُنَنِ الــنــبــــــ ... ــيِّ يَجُدُّ في إطفـــائهـــا
والرُّخَجيُّ الأعـــورُ الدَّجــ ... ــالُ من أمــــــرائهــــا
يمضي الأمـــورَ مُعـــانداً ... للهِ في إمــــضــــائهــــا
يغـــري بقـــذفِ المُحْصَنا ... تِ وليسَ من أبنائهـــا

دعبل الخزاعي:

وممن هجا ابن الزيات من الشعراء دِعْبِل بن علي الخزاعي (١٤٨ـ ٢٤٦ هـ)، وكان دعبل كثير الهجاء لا يهاب من يكون مهجوه، فقد هجا الخلفاء بأقذع الهجاء، وهجا الأمراء والوزراء، وكان من جملة المهجوين الخليفة المأمون العباسي، وأخوه المعتصم، وهجا ابن الزيات أيضاً، ولم يرد ابن الزيات على هجائه، ولما سُئل: لمَ لا تجيبُ دعْبِلاً عن قصيدته التي هجاك فيها؟ قال: «إن دِعْبِلاً قد نحت خشبته، وجعلها على عنقه، يدور بها يطلب من يصلبه منذ ثلاثين سنة، ليس يجد أحداً يفعل ذلك به، أأجيء أنا فأجيبه؟ قد ضللتُ إذن، وما أنا من المهتدين»(١).

ويبدو أن صلة دِعْبِل بابن الزيات كانت في بدايتها جيدة، وأن دِعْبِلاً كان يُعِدُّ قرابة الأدب كقرابة النسب، فهو يعاتب ابن الزيات بأن الأدب يجمعهما، وله عليه بذلك حقوق، يقول:(٢)

---

(١) ابن المعتز ـ طبقات الشعراء ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٢) ديوان دعبل الخزاعي ص ٦٦ وقد تردد المحقق في نسبة البيتين بين ابن الزيات وأحمد بن يوسف الكاتب، وكلاهما يكنى بأبي جعفر.

اذكرْ أبا جعفرٍ حقاً أمُتُّ بـه ... أنّي وإيّاكَ مشغوفان بالأدبِ

وأنّنا قد رضعنا الكأسَ درّتها ... والكأسُ درّتُها حظٌّ من النسبِ

وكان دِعْبل قد مدح ابن الزيات، فأنشده ما قال فيه، وفي يد ابن الزيات طومار قد جعله على فمه، كالمتكيء عليه، وهو جالس، فلما فرغ أمر له بشيء لم يرضه، فقال يهجوه:[1]

يا من يقلّبُ طوماراً ويلثمُهُ ... ماذا بقلبكَ من حُبِّ الطواميرِ

فيه مشابهُ من شيءٍ تُسَرُّ به ... طولاً بطولٍ وتدويراً بتدويرِ

لو كنتَ تجمعُ أموالاً كجمعِكها ... إذاً جمعتَ بيوتاً من دنانيرِ

وقد هجا دعبل الخليفة المعتصم عند موته، وكان يعارض ويعلق على أبيات لابن الزيات رثى بها المعتصم، يقول ابن الزيات:[2]

قد قلتُ إذْ غيّبوهُ وانصرفوا ... في خيرِ قبرٍ لخيرِ مدفونِ

لن يجبرَ اللهُ أمةً فقدتْ ... مثلكَ إلا بمثلِ هارونِ

فقال دعبل يعارضه:

قد قلتَ إذْ غيّبوهُ وانصرفوا ... في شرِّ قبرٍ لشرِّ مدفونِ

اذهبْ إلى النارِ والعذابِ فما ... خِلْتُكَ إلا من الشياطينِ

ما زلتَ حتى عقدتَ بيعةَ مَنْ ... أضَرَّ بالمسلمينَ والدِّينِ

علي بن جبلة:

وممن هجا ابن الزيات وبالغ في هجائه، الشاعر علي بن جبلة، المعروف بالعَكَوَّك، وهو من أبناء الشيعة الخراسانية، وهو شاعر عراقي مجيد، كان أعمى أسود أبرص، ومن أحسن الناس إنشاداً، حتى إن الأصمعي ـ فيما يقال ـ كان يحسده، وهو الذي لقبه بالعَكَوَّك، أي: الغليظ السمين، قتله المأمون حوالي سنة ٢١٣هـ/٨٢٨ م[3]،

---

(١) الأغاني ٢٠/١٥٢، وديوان دعبل ص ١٥٥، والطومار: الصحيفة.
(٢) الأغاني ٢٠/١٥٨، والديوان ق ١٦١.
(٣) وفيات الأعيان ١/٣٤٨ .

وأهاجي العكوك في ابن الزيات كانت قبل أن يلي الوزارة، ولذلك كانت أهاجيه فيه قاسية، ولم يكن يخشاه، وقد انصب هجاؤه على مهنة أبيه وجده، وقال أبو الفرج إن ابن جبلة هجا ابن الزيات، وكان قد قصد أبا دلف القاسم بن عيسى في بعض أمره، قال:(١)

يا بائعَ الزيتِ عرِّجْ غيرَ مرموقِ ... لَتُشغَلَنَّ عن الأرطالِ والسوقِ
من رامَ شتمَكَ لم ينزعْ إلى كَذِبٍ ... في منتماكَ وأبداهُ بتحقيقِ
أبوكَ عبدٌ وللأمِّ التي فلقتْ ... عن أمِّ رأسكَ هَنٌّ غيرُ محلوقِ
إنْ أنتَ عدَّدْتَ أصلاً لا تُسَبُّ به ... يوماً فأمُّكَ مني ذاتُ تطليقِ
ولن تطيقَ بحولٍ أنْ تُزيلَ شجاً ... أثبتُّهُ منك في مستنزَلِ الرِّيقِ
أللهُ أنشاكَ من نَوْكٍ ومن كَذِبٍ ... لا تعطفَنَّ إلى لؤمٍ لمخلوقِ
ماذا يقولُ امرؤٌ غشَّاك مدْحَتَهُ ... إلا ابنُ زانيةٍ أو فرخُ زنديقِ

وهي قصيدة بالغة الشدة والإقذاع لم يُهْجَ ابن الزيات بأقذعَ منها، على كثرة ما هُجي، فأجابه ابن الزيات بأبيات يدفع عن نفسه سوء أدب بالعَكَوَّك في غير إقذاع:(٢)

اشمخْ بأنفكَ يا ذا السَّيِّءِ الأدبِ ... ما شئتَ واضربْ قَذالَ الأرضِ بالذَّنَبِ
وارفعْ بصوتكَ تدعو من بذي عَدَنٍ ... ومن بقالي قَلا بالويلِ والحَرَبِ
ما أنتَ إلا امرؤٌ أعطى بلاغَتَهُ ... فَضْلَ العِذارِ ولم يَرْبَعْ على أدبِ

وكان ابن الزيات قد عرَّضَ بأبي دُلَف العجلي، وكان أبو دُلَف صديقاً لخصمه أحمد بن أبي دواد، وذلك في قوله:(٣)

---

(١) الأغاني ٢٣ / ٦٦، وشعر العَكَوَّك ص ٨٨، ولم نقف على سبب بدء هذه المهاجاة، الهن: ما يستقبح ذكره عند المرأة، النوك: الحمق والغباء.
(٢) الأغاني ٢٣ / ٦٦ ـ ٦٧، والديوان ق ٢١.
(٣) الديوان ق ٢١ ب ٦ ـ ٨.

صبراً أبـا دُلَـفٍ في كـلِّ قافيـةٍ كالقِدْرِ وقْفاً على الجاراتِ والعُقبِ
يا ربِّ إنْ كان ما أنشأتَ من عَـرَبٍ شروى أبي دُلَفٍ فاسْخَطْ على العَرَبِ
إنَّ التَّعَصُّبَ أبـدى منـكَ داهيـةً كانتْ تُحَجَّبُ دونَ الوهْمِ بالحُجُبِ

وتستمر المهاجاة بين الرجلين ويبدو أن العَكَوَّك كان حريصاً على الدفاع عن ممدوحه أبي دُلَف العجلي دُلَف يهجو ابن الزيات لأنه عرَّض بأبي دُلَف ويجنح دُلَف إلى التهديد والوعيد يقول:(١)

فارددْ جُفونَكَ حسْرى عن أبي دُلَفٍ ولا ملامَـةَ أنْ تَعْشى عـن القَمَرِ
لا يسخطنَّ امرؤٌ إنْ ذلَّ من حسبٍ فاللهُ أنزلَـهُ في مُحْكَـمِ السوَرِ
لم آتِ سوءاً ولم أسخَطْ على أحدٍ إلا على طلبي في مجتدىً عَسِرِ
أقصِرْ أبـا جعفرٍ عن سطوةٍ جمحـتْ إنْ لم تقصِّرْ بها مالت إلى القِصَرِ

ويعجب ابن الزيات من هجاء العَكَوَّك، ومن إلحاحه في هذا الهجاء، ولم يكن بينهما ثأر أو وتر، فلا يملك إلا أن يستهين بهذا الشاعر البذيء المقذع الذي يرى أنه يعيش في مجتمعهم شاذاً مهملاً كما تعيش الحمير والبقر:(٢)

يا أيها العائبي ولم يَرَ لي عَيباً أما تَنْتهي فتزْدَجِرُ
هل لكَ وِتْرٌ لديَّ تطلُبُهُ فأنتَ صَلْدٌ ما فيكَ مُعْتَصرُ
فالحمدُ والشكرُ والثَّناءُ لنا وللحسودِ التـرابُ والحَجَـرُ

وفيها يقول:

تعيشُ فينـا ولا تـلائمنـا كما تعيشُ الحميرُ والبقرُ
تغلي علينا الأشعارُ منك وما عندكَ نفعٌ يُرجى ولا ضَرَرُ

---

(١) الأغاني ٢٣/٦٧، وشعر العكوك ص٥٦.
(٢) الأغاني ٢٣/٨٦، والديوان ق٥٥.

دندن الكاتب :

وآخر من نذكر ممن هجا ابن الزيات هو دندن الكاتب، وكان هجاؤه لابن الزيات حسداً، فقد رأى دندن ابن الزيات وعليه خلع الوزارة للمتوكل لما وزر له، فقال دندن يهجوه :(١)

راح الشقيُّ بخلعةِ النُّكْرِ مثلَ الهديِّ لليلةِ النَّحْرِ
لا تمَّ شهرٌ بعدَ خِلْعَتِهِ حتى تراه طافيَ الجَمْرِ
ويُرى يُطايِنُ من إساءتِهِ يهوي لهُ بقواصمِ الظهرِ

---

(١) الأغاني ٢٣ / ٨٧ . قواصم الظهر : المصائب والبلايا .

نكبة ابن الزيات وقصة التنور

وزارته وقوته:

مر بنا أن محمد بن عبد الملك الزيات تقلد الوزارة لثلاثة خلفاء، وكان حازماً قوياً شديداً مستقل الرأي مهيب الجانب، مع شيء غير قليل من القسوة والغلظة على الكُتّاب والعمال الذين يستهينون بأمور الدولة ويعبثون بأموالها، وكان ابن الزيات مكيناً لدى الخلفاء وبخاصة المعتصم والواثق، وكان في زمن المعتصم شديداً على ابنه الواثق لا ينفذ ما يأمر به المعتصم من إعطائه المال الكثير، وكان يراجع الخليفة في ذلك، وقد كسب بذلك عداء الواثق الذي أقسم بأغلظ الأيمان إنْ ولي الخلافة ليقتلنه شر قتله، إلا أن الواثق لما ولي الخلافة، ورأى مقدرة ابن الزيات وحزمه واستقامته وحاجة السلطان إليه، عفا عنه وأكرمه، وعلت منزلته في عهده، حتى إنه أمر الكُتّاب ومَن في الديوان أن يقوموا له إذا مرَّ بهم، وكان في زمن الواثق شديداً على أخيه المتوكل، لما رأى منه من تقصير وسلوك لا يليق بأخي الخليفة، وما كان عليه من زي يشبه زي المخنثين، فعامله ابن الزيات بقسوة وغلظة، ولم يشفع له عند أخيه ليرضى عنه، بل كان سبباً في حلق رأسه وجز شعر قفاه، وحاول ابن الزيات أن يجعل الخلافة وولاية العهد بعد موت الواثق لابنه، ويحجبها عن أخيه المتوكل، فلم يفلح، وانتصر عليه في هذا الأمر خصمه أحمد بن أبي دواد، الذي سعى في تولية المتوكل، وحظي عنده، وأضمر المتوكل أن ينتقم من ابن الزيات، وساعده على ذلك إغراء ابن أبي دواد قاضي القضاة في قتله ومصادرته، طمعاً في ماله، وتخلصاً من خصم منافس شديد، إلا أن المتوكل قد أرجأ ذلك أربعين يوماً، فأقر ابن الزيات على الوزارة، وخلع عليه، ثم صادره وحبسه وأمر بتعذيبه حتى هلك.

ومن هنا يتضح أن سبب نكبة ابن الزيات وقتله يعزى إلى جملة أسباب، منها:

١ــ أنه أشار بتولية محمد بن الواثق بعد وفاة الخليفة بدلاً من المتوكل، فعارضه في ذلك القاضي ابن أبي دواد وأشار بتولية المتوكل، وقام في ذلك وقعد فعممه بيده

وألبسه البردة وقبَّله بين عينيه، وتبعه في ذلك بقية القواد، بعد أن اعترضوا على تولية محمد بن الواثق لأنه غلام صغير أمرد.

٢- قسوة ابن الزيات على المتوكل في حياة أخيه الواثق، والتضييق عليه في النفقات، لأن المتوكل كان مسرفاً في اللهو والشراب، وكان الواثق غاضباً عليه، وكان لسيرة المتوكل الشاذة سبب في غضب الواثق عليه.

٣- كثرة خصوم ابن الزيات وحساده، وسياسته الحازمة القاسية، وكان من أبرز خصومه وأشدهم تأثيراً في الخلفاء أحمد بن أبي دواد، الذي ظل يغري المتوكل بمصادرته وقتله، ففلح في ذلك.

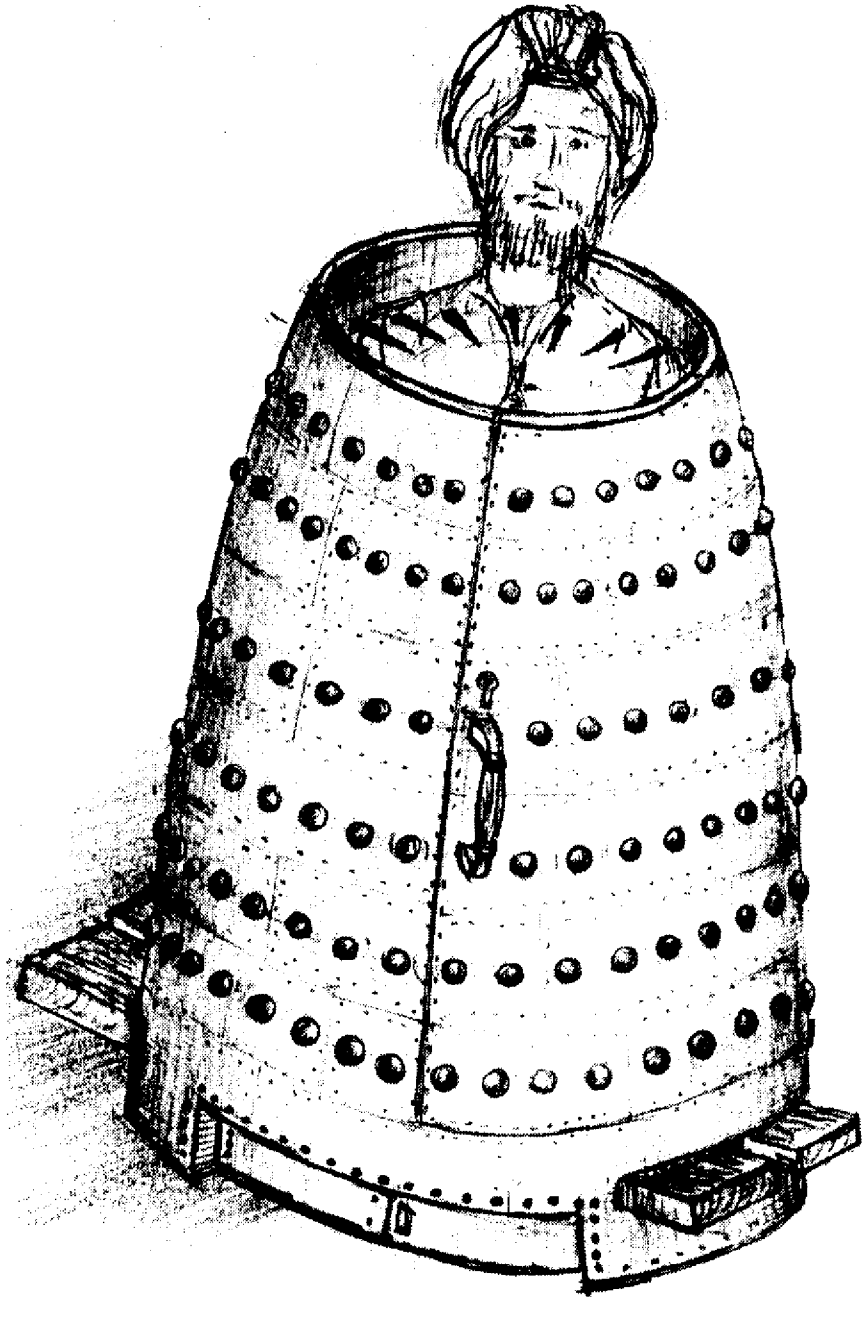

صورة متخيلة لتنور ابن الزيات

التَّنُّوْر

وكان عذاب ابن الزيات في التنور الذي صنعه، فما هو التنور؟.

لم يرد للتنور ذكر في التاريخ الإسلامي قبل عهد ابن الزيات، قيل إن ابن الزيات صنع التنور للمصادرين والمغضوب عليهم المطلوبين بالأموال، وذلك في أيام وزارته للمعتصم[١]، وينص ابن خلكان إلى أنه: «لم يسبقه أحد إلى هذه المعاقبة»[٢]، وفي الطبري قوله: «فذكر عن ابن أبي دواد وأبي الوزير أنهما قالا: هو أول من أمر بعمل ذلك، فعذَّب به ابن أسباط المصري، حتى استخرج منه جميع ما عنده، ثم ابتُلي به فعُذِّبَ به أياما»[٣].

فما هو التنور؟ وما شكله؟ وما هي مادة صنعه؟.

التنور من اسمه، هو الذي يخبز فيه الخبز، أي أنه وعاء أو فرن يخبز فيه، توضع في جوفه النار، ويلصق العجين على جوانبه ليكون خبزاً، والتنور: مفجِّر الماء، ومنه قوله تعالى: ﴿**حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور**﴾[٤].

وجاء وصف التنور الذي صنعه ابن الزيات ـ كما ذكرته المصادر ـ على الوجه الآتي:

تنور من حديد رؤوس مساميره إلى الداخل قائمة مثل رؤوس المسال[٥]، وقال البغدادي: تنور من حديد وأطراف مساميره المحددة إلى داخله، وهي قائمة مثل رؤوس المسالّ، وكان يُعَذَّب فيه أيام وزارته، فكيفما انقلب المعَذَّبُ أو تحرك من حرارة العقوبة، تدخل المسامير في جسمه[٦]، ويقول البيهقي: يمد المعذَّب يديه إلى السماء

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ٥ / ٧.
(٢) وفيات الأعيان ٥ / ١٠٠.
(٣) الطبري ١٠ / ٨.
(٤) هود ٤٠.
(٥) مروج الذهب ٥ / ٧، والمسال: جمع مسلة وهي المخيط الضخم.
(٦) الخزانة ١ / ٤٥٠.

جميعاً حتى يدقَّ موضع كتفيه ثم يدخل التنور ويجلس، وفي التنور مسامير حديد، وفي وسطه خشبة معترضة يجلس المعذَّب عليها، إذا أراد أن يستريح[١]، وقيل: تنور من حديد وفيه مسامير أطرافها المحددة إلى داخل التنور، وهي قائمة مثل رؤوس المسالّ، ويعذَّب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطوبين بالأموال، فكيفما انقلب أحدهم أو تحرك من حرارة الضرب دخلت تلك المسال في جسمه، فيجد من ذلك ألما عظيماً[٢]، ويقول ياقوت على لسان الجاحظ: ولما قُبض على محمد هرب الجاحظ، فقيل له: لمَ هربت؟ فقال: خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور، يريد ما صنع بمحمد وإدخاله تنور حديد فيه مسامير، وكان هو صنعه ليعذب الناس فيه، فعُذِّبَ هو فيه حتى مات[٣]، ويقول ابن خلكان: وكان ابن الزيات قد اتخذ تنورا من حديد، وأطراف مساميره المحددة إلى الداخل وهي قائمة مثل رؤوس المسالّ، في أيام وزارته، وكان يعذِّب فيه المصادرين، وأرباب الدواوين والمطلوبين بالأموال، فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة (وفي نسخة: من حرارة النار والعقوبة) تدخل المسامير في جسمه، فيجدون لذلك أشد الألم، ولم يسبقه أحد إلى هذه المعاقبة[٤].

وصرح الأصفهاني أن التنور يحمى بالنار، قال: فلما قُبض عليه (أي ابن الزيات) استعمل له تنور حديد، وجعل فيه مسامير لا يقدر معها أن يتحرك إلا دخلت في جسده، ثم أحماه له وجعله فيه فكان يصيح: ارحموني، فيقال له: اسكت، أنت كنت تقول: ما رحمت أحداً قط، والرحمة ضعفٌ في الطبيعة، وخَور في المُنَّة، فاصبر على حكمك، وخرج عليه عبادة[٥]، فقال: أردت أن تشويني فشَوَوْكَ[٦]، وفي رواية عن العباس بن طومار: أمر المتوكل عبادة أن يدخل إلى محمد بن عبد الملك الزيات ـ وقد

---

(١) المحاسن والمساوئ ص٥٣٢.

(٢) الوافي بالوفيات ٤/٣٢ ومثله في تاريخ بغداد ٣/١٤٥ـ١٤٦، وشذرات الذهب ٣/١٥٤ والفخري ص ٢٣٣.

(٣) معجم الأدباء ٥/٢١٠٢.

(٤) وفيات الأعيان ٥/١٠٠.

(٥) عبادة: هو المشرف والقائم على تعذيب ابن الزيات.

(٦) الأغاني ٢٣/٧٣.

أُحْمي تنور حديد وجعله فيه ـ فيكايده، فدخل إليه فوقف بإزائه...[1].

وكل المصادر السابقة تنص على أن التنور من حديد، ولكن الطبري يذكر في سياق تعذيب ابن الزيات أن التنور من خشب فيه مسامير من حديد قيام[2].

ومن خلال هذه المصادر التي قصدنا أن نذكرها بنصوصها يتبين:

١ـ أن ابن الزيات أول من عمل التنور للتعذيب لاستخلاص الأموال من المطلوبين والمصادرين، وإن كان التنور معروفا للعلاج، ففي خبر وفاة الواثق ساق الطبري خبراً مفاده أن الواثق أصيب بعلة الاستسقاء، فعولج بالإقعاد في تنور مسخَّن، فوجد لذلك راحة وخفَّة مما كان به، فأمرهم من غد ذلك اليوم بزيادة في إسخان التنور، ففُعِل ذلك وقعد فيه أكثر من قعوده في اليوم الذي قبله، فحُمي عليه فأُخرج منه وصُيِّر في محفه ثم مات بعد ذلك[3].

٢ ـ إن التنور من حديد وفيه مسامير حادة قائمة، كأنها الإبر الغلاظ أو المخيط.

٣ ـ أن التنور ضيق، والمسامير تحيط بجسم المعذَّب، فإنْ تحرَّك دخلت المسامير في جسمه، فيشعر بألم شديد.

٤ ـ قد يكون التنور للتضييق على المعذَّب وعدم استطاعته الحركة، دون الحاجة إلى حميه بالنار.

٥ ـ مما ذُكر أن التنور يحمى بالنار، وقال الأصفهاني: (ثم أحماه)، وذكر عبارة: (أردت أن تشويني فشووك).

٦ ـ أن المعذَّب يضرب، فإذا تحرَّك دخلت المسامير في جسمه.

٧ ـ إذا كان المعذَّب يضرب وهو في التنور والتنور من حديد، فينبغي أن يكون الضرب على الرأس والوجه.

---

(١) الأغاني ٢٣ / ٧٤.
(٢) الطبري ١٠ / ٨.
(٣) الطبري ٩ / ١٥٠.

٨ ــ ذُكر في تعذيب ابن الزيات أنه ضُرب على بطنه خمسين مقرعة، ثم قُلب فضُربَ على استه مثلها، فمات وهو يضرب وهم لا يعلمون، ومعنى هذا أن الضرب في هذه الحالة يكون المعذَّب خارج التنور.

٩ ــ في خبر عذاب ابن الزيات أن المتوكل أمر بإدخاله في التنور، وقُيِّدَ بخمسة عشر رطلاً من الحديد.

١٠ــ في أسفل التنور خشبة يجلس عليها المعذَّب، ولكن الخشبة تسحب من تحته حتى يظل واقفاً زيادة في عذابه، وإذا حاول الجلوس مع وجود الخشبة شُدَّ من رقبته، كما سيأتي في عذاب ابن الزيات.

١١ــ يرفع المعذَّب يديه إلى أعلى حتى يدق كتفه، ومعنى هذا أن يديه قد تكونان خارج التنور، فيستطيع كتابة بعض الكلمات، كما فعل ابن الزيات حين كتب على ظهر التنور أبياتاً، وهذا يتيح للمعذَّب أن يضربه على يديه وكتفيه ورأسه وهو في التنور.

١٢ــ إن وقوف المعذَّب وعدم استطاعته الحركة خوفاً من انغراز المسال في جسمه، هو عذاب شديد، حتى لو لم يُضرب، أو لم يُحمَ التنور، ولا شك أن المعذَّب يعاني آلاماً شديدة في قدميه وساقيه وظهره.

١٣ــ ليس هناك تحديد للأيام التي يبقى فيها المعذَّب في التنور، قد تطول حتى الإقرار والاعتراف بما يريدون ، أو حتى وفاة المعذَّب، وكان عذاب ابن الزيات في التنور قد استمر أربعين يوما إلى أن توفي.

١٤ــ لم يرد ذكر لإطعام المعذَّب، ونفترض أنه يأكل مرة واحدة في يومه، رغيفا من الخبز وجرعة ماء، وفي خبر ابن الزيات أنه لم يأكل طيلة حبسه إلا رغيفاً واحداً، وكان يأكل العنبة والعنبتين.

١٥ ــ لم يرد ذكر لقضاء حاجة المعذَّب، وفي أكبر الظن أنه كان يقضيها في مكانه لطول مدة العذاب.

نكبة ابن الزيات

لما آلت الخلافة إلى جعفر المتوكل، وكان لابن الزيات مواقف شديدة قاسية من المتوكل في عهدأخيه الواثق،فقدكان يضطهده ويعنفه لما كان من غضب الواثق على أخيه المتوكل لسفهه ومجونه وانصرافه إلى اللهو والشراب والتشبه بالمخنثين من إسدال الشعر الطويل وخاصة شعر القفا، وكان ابن الزيات قد تجهم للمتوكل حين طلب منه التوسط له لدى أخيه الواثق ليرضى عنه فلم يعنه ، ولما توفي الواثق سعى ابن الزيات لجعل الخلافة لمحمد بن الواثق وكان صغيراً، وأراد أن يحجبها عن المتوكل، وسعى خصمه أحمد بن أبي دواد لبيعة المتوكل، ولما صار المتوكل خليفة، كان ابن أبي دواد يغريه بمصادرة ابن الزيات وقتله، وزيَّن له أن لابن الزيات أموالاً طائلة ، ولم ينس المتوكل سلوك ابن الزيات حياله، فأمهله أربعين يوماً بعد أن أقرَّه على الوزارة وخلع عليه، حتى إذا كان يوم الأربعاء لسبع خلون من شهر صفر سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م أمر المتوكل إيتاخ بأخذه وعذابه، فبعث إليه إيتاخ ، فظن ابن الزيات أنه دُعي به، فركب بعد غدائه مبادراً، فلما حاذى منزل إيتاخ ، قيل له : اعدل إلى منزل أبي منصور، فعُدِل به، وأوجس في نفسه خيفة ، فلما جاء إلى الموضع الذي كان ينزل فيه إيتاخ، عُدِل به يمنةً، فأحسَّ بالشر، ثم أدخل حجرة، وأُخِذ سيفه ومنطقته وقلنسوته ودراعته، فدُفِع إلى غلمانه، وقيل لهم انصرفوا، فانصرفوا لا يشكون أنه مقيم عند إيتاخ ليشرب النبيذ(١).

وكان إيتاخ قد أعد له رجلين من وجوه أصحابه، هما يزيد بن عبد الله الخلواني، وهرثمة شاربامیان، فلما كان ابن الزيات في منزل إيتاخ، خرج هذان يركضان في جندهما وشاكريتهما حتى أتيا دار محمد بن عبد الملك ، فهجما على داره وأخذا جميع ما فيها. وكان المتوكل قد أمر في هذا اليوم أن يقبض على كل ما في منزله من متاع ودواب وجوار وغلمان، فصيَّر ذلك كله في الهاروني، ووجه راشداً المغربي إلى

---

(١) الطبري ١٠/٧.

بغداد في قبض ما هنالك من أمواله وخدمه، وأمر أبا الوزير بقبض ضياعه، وضياع أهل بيته حيث كانت، فأما ما كان بسامرا، فحمل إلى خزائن مسرور سماتة، بعد أن اشتري للخليفة، وقيل لمحمد بن عبد الملك: وكِّل ببيع متاعك، وأتوه بالعباس بن أحمد بن رشيد كاتب عجيف، فوكله بالبيع عليه[1].

ويبدو أن الموكلين بمصادرة أموال ابن الزيات لم يبقوا له أو لأهل بيته شيئاً ذا بال، ذكر ابن الحلواني ما صار عليه بيت ابن الزيات، قال: أتيت البيت الذي كان محمد ابن عبد الملك يجلس فيه، فرأيته رث الهيئة قليل المتاع، ورأيت فيه طنافس أربعة وقناني رطليات فيها شراب، ورأيت بيتا ينام فيه جواريه، فرأيت فيه بوريًّا[2] ومخاداً منضدة في جانب البيت، على أن جواريه كن ينَمْنَ فيه بلا فرش[3].

وبقي ابن الزيات أياماً في حبسه مطلقاً، ثم أُمِر بتقييده فقُيِّد في حديد ثقيل، قيل: خمسة عشر رطلاً[4]، وساءت حاله فامتنع عن الطعام، وكان لا يذوق شيئاً، وكان شديد الجزع من الحبس، كثير البكاء، قليل الكلام، كثير التفكير.

ثم بدأت عملية التعذيب، وكان أولها أن سوهر، ومُنِع من النوم، فكان الموكل به إذا رآه قد غفا ينخسه بمسلة، ثم تُرك يوماً وليلة، فنام وانتبه، فاشتهى فاكهة وعنباً، فأُتي به فأكل، ثم أُعيد إلى المساهرة. ولم يكتفوا بعذاب السهر، بل شددوا عليه العذاب بأنْ أدخلوه في التنور، والمسامير تحيط به فلا يستطيع الحركة، ولم يُترك في التنور وشأنه، بل زادوا عليه العذاب، روى الدنداني الموكَّل بعذابه أنه قال: «كنت أخرج وأقفل الباب عليه، فيمد يديه إلى السماء جميعها حتى يدقَّ موضع كتفيه، ثم يدخل التنور فيجلس، والتنور فيه مسامير حديد، وفي وسطه خشبة معترضة، يجلس عليها المعذَّب، إذا أراد أن يستريح، فيجلس على الخشبة ساعة، ثم يجيء الموكل به، فإذا سمع صوت الباب يُفتح قام قائما كما كان. ثم شددوا عليه[5].

---

(١) الطبري ١٠/٨.
(٢) البُوريُّ: الحصير المنسوج من القصب. فارسي معرّب (المعرب ص٢٤٦، اللسان: بور).
(٣) الطبري ١٠/٨.
(٤) ابن خلكان ٥/١٠٠.
(٥) الطبري ١٠/٨.

وقد مُنِع ابن الزيات حتى من القعود على الخشبة داخل التنور، قال المعذَّب له: «ثم خاتلته يوماً، وأريتُه أنّي أقفلت الباب، ولم أقفله، إنما أغلقته بالقفل، ثم مكثت قليلاً، ثم دفعت الباب غفلة، فإذا هو قاعد في التنور على الخشبة، فقلت: أراك تعمل هذا العمل!! فكنت إذا خرجت بعد ذلك شددت خناقه، فكان لا يقدر على القعود، واستللت الخشبة حتى كانت تكون بين رجليه، فما مكث بعد ذلك أياماً حتى مات»[1]، وإذا صحت رواية موته، فيبدو أنه مات مخنوقاً، لأن المُعَذَّب قد شدَّ خِناقَهُ حتى لا يجلس على الخشبة، ومع ذلك فقد سحب الخشبة فلم يستطع القعود، ولا شك أنه قد أُنْهِكَ فلم تحتمله رجلاه فانهار جسمه إلى أسفل، والحبل في رقبته فاختنق بثقل جسمه، هذه رواية موته، وهناك رواية أخرى ، أظنها الأرجح، تقول: «إنه بُطِحَ فضُرِبَ على بطنه خمسين مقرعة، ثم قُلِبَ فضُرِبَ على استه خمسين أخرى، فمات وهو يُضْرب، وهم لا يعلمون، فأصبح ميتاً قد التوت عُنُقُهُ، ونُتِفَتْ لحيتُه»[2]، وقد اجتمع على ابن الزيات عذاب التنور والضرب والجوع أيضاً، قال مبارك المغربي: ما أظنه أكل طول حبسه إلا رغيفاً واحداً، وكان يأكل العنبة والعنبتين.

وكان يتذكر حاله قبل النكبة، وما كان فيه من نعمة، وندم أنْ طلب الوزارة، ويحزن على ما صار إليه، ووصف المغربي حاله قبل الموت، قال: «كنت أسمعه قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه: يا محمد بن عبد الملك، لم تقنعك النعمة والدواب الفُرَّه، والدار النظيفة، والكسوة الفاخرة، وأنت في عافية، حتى طلبت الوزارة، ذق ما عملت بنفسك، فكان يكرر ذلك على نفسه، فلما كان قبل موته بيوم، ذهب عنه عتاب نفسه، فكان لا يزيد على التشهد وذكر الله»[3]، وكانت مدة إقامته في التنور أربعين يوماً[4].

---

(١) الطبري ١٠/ ٩ .
(٢) السابق والصفحة .
(٣) الطبري ١٠/ ٩ .
(٤) ابن خلكان ٥/ ١٠٠ .

ولما أُخذ ابن الزيات أُخذ ابناه سليمان وعبيد الله فحُبسا، فلما مات ابن الزيات، أُحضر ابناه وقد طُرحت جُثَّتُهُ على باب من خشب في قميصه الذي حُبس فيه، وقد اتسخ فدفعت جثته إليهما، فغسلاه على الباب الخشب ودفناه وحفرا له، فلم يعمقا، فذُكر أنَّ الكلاب نبشته وأكلت لحمه[1]، وتبالغ الرواية فتجعل ابنيه يشتمانه حين رأيا جثته، فقالا: الحمد لله الذي أراح من هذا الفاسق[2]، وما أظن هذه الرواية صحيحة، إذ لم يعرف عن أبنائه العقوق والجحود، وإذا افترضنا أنها صحيحة وهذا فرض بعيد، فإن الخوف من بطش السلطان أنطقهما بهذا الكلام. وهكذا يسدل الستار على حياة كاتب شاعر وزير حازم أراد أن يعيد للخلافة هيبتها، ويضع حداً لطمع الطامعين وعبث العابثين بأموال الدولة ومصائر الناس، في زمن كان الخلفاء ضعفاء ومنصرفين إلى اللهو والترف والسرف والمجون، وغلب عليهم قادة الجند من الأتراك، وقد كان للأحقاد والمنافسات أثر كبير في مصير ابن الزيات، الذي بولغ في عذابه وإهانته، وكان الطامعون في ماله يظنون أن له ثروات طائلات، ولكنهم حين صادروه لم يجدوا من كل أمواله في سامراء وبغداد إلا ما قيمته تسعون ألف دينار، وقيل: مائة ألف، في زمن كانت الجوائز والهبات تجاوز هذا المبلغ، وأن هذه الثروة تعد زهيدة لمن تولى الوزارة أربع عشرة سنة، وكان غنياً موسراً قبل أن يتولى الوزارة، ومن أسرة من أثرياء بغداد، ولذلك فقد قيل: إن المتوكل ندم على فعلته، وقال لابن أبي دواد: «أطمعتني في باطل، وحملتني على شخص لم أجد عنه عوضاً»[3].

شعره عند العذاب:

يبدو أن الخليفة المتوكل كان يحضر إلى السجن ويشاهد عذاب ابن الزيات، وكان ابن الزيات يستعطفه ويقول: يا أمير المؤمنين، ارحمني، فقال له: الرحمة خور في الطبيعة كما كنت تقول للناس[4]، وقال له: «أجرينا فيك حكمك في الناس»[5].

---

(١) الطبري ١٠/٩.
(٢) السابق والصفحة.
(٣) الأغاني ٢٣/٧٣، والطبري ٩/١٦١.
(٤) ابن خلكان ٥/١٠٠.
(٥) السابق ٥/١٠٢.

وقد طلب ابن الزيات أثناء عذابه دواة وبطاقة، فأحضرتا إليه، فكتب: (١)

هي السبيلُ فمن يومٍ إلى يومِ كأنَّهُ ما تُريكَ العينُ في النومِ
لا تجزَعَنَّ رويداً إنها دُوَلٌ دُنْيا تَنَقَّلُ من قومٍ إلى قومِ

وسيَّرها إلى المتوكل فاشتغل عنها، ولم يقف عليها إلا إلى الغد، فلما قرأها المتوكل أمر بإخراجه، فجاءوا إليه فوجدوه ميتاً(٢)، ومما كتبه أثناء العذاب أبياتاً، يذكر فيها ما يقاسيه من تسهير، ويتشوق إلى النوم، وقد وجدت هذه الأبيات مكتوبة بخطه بالفحم على جانب التنور:(٣)

من لهُ عهدٌ بنومٍ يُرشِدُ الصَّبَّ إليهِ
رحم اللهُ رحيماً دلَّ عينيَّ عليهِ
سَهِرَتْ عيني ونامتْ عينُ منْ هُنْتُ عليهِ

وقد دخل عليه أحد أصحابه وهو أحمد الأحول، فرآه وكلَّمهُ ووصف حالهُ، قال: لما قُبِضَ على ابن الزيات، تلطفتُ إلى أنْ وصلتُ إليه، فرأيتُهُ في حديد ثقيل، فقلتُ له: يعز عليَّ ما أرى، فقال:(٤)

سَلْ ديارَ الحيِّ مَنْ غَيَّرها وعفاها ومحا منظرَها
وهي الدنيا إذا ما أقبلتْ صيَّرتْ معروفَها مُنْكَرَها
إنَّما الدنيا كظلٍّ مائلٍ نحمدُ اللهَ كذا قدَّرَها

ولما جُعِل في التنور قال له خادمه: ياسيدي قد صرتَ إلى ما صرتَ إليه، وليس لك حامد، فقال له: وما نفع البرامكة صُنْعُهم؟ فقال: ذكرك لهم هذه الساعة! فقال: صدقت، رحمه الله(٥)، وإيغالاً في إيذائه وتوبيخه، أمر المتوكل عبادة أن

---

(١) ابن خلكان ٥ / ١٠٠، والديوان ق ١٤١.
(٢) السابق والصفحة.
(٣) ابن خلكان ٥ / ١٠٠، الوافي ٤ / ٣٣، البغدادي ـ تاريخ بغداد ٣ / ١٤٦، والديوان ق ١٧٤.
(٤) الأغاني ٢٣ / ٧٤، ابن خلكان ٥ / ١٠١، تاريخ بغداد ٣ / ١٤٦، الوافي ٤ / ٣٣ والديوان ق٧٣.
(٥) ابن خلكان ٥ / ١٠١.

يدخل إلى محمد بن عبد الملك الزيات ـ وقد أحمى تنور حديد، وجعله فيه ـ فيكايده، فدخل إليه فوقف بإزائه وجعل يعظه بعظات، وقعها أشد من الإبر والمسامير، قال له: اسمع يا محمد، كان في جيراننا حفار يحفر القبور، فمرضت مخنثة[1] من جيراني، وكانت صاحبة لي، فبادر فحفر لها قبراً من الطمع في الدراهم، فبرأت هي، ومرض هو بعد أيام، فدخلت إليه صاحبتي وهو بالنزع، فقالت: ويْ يا فلان! حفرت لي قبراً وأنا في عافية، أو ما علمت أنه من حفر بئر سوء وقع فيها؟ وحياتك يا محمد، لقد دفناه في ذلك القبر، والعُقْبى لك. قال: فوالله ما برح من إزاء محمد بن عبد الملك يؤذيه ويكايده إلى أن مات[2]، وعلى غرار هذا ما ذكره البيهقي قال: «أمر بعمل التنور فابتلي به لصحة المثل: كما تدين تدان، وإن شئت: مَنْ يُرِ يوماً يُرَ بهِ، وإنْ شئت: من حفر حفرة هوي فيها، فعُذِّب في التنور»[3].

والشعر الذي قاله وهو تحت العذاب كثير، فمما يروى أنه وُجد على حائط البيت الذي كان فيه من قِبَل التنور، قوله: [4]

لعبَ البِلى بمعالمي ورسومي ... ودُفِنْتُ حيّاً تحت رَدْمِ غُموم
وشكوتُ غَمّي حينَ ضِعْتُ ومن شكا ... كَرْباً يضيقُ بهِ فغيرُ مَلومِ
لَزِمَ البِلَى جسمي وأوهَنَ قوَّتي ... إنَّ البِلَى لَمُوكَّلٌ بلزومِ

ويخاطب ابنته وما سيكون حالها ويوصيها:

أَبُنَيَّتي قِلّي بُكاكِ واصبري ... فإذا سمعتِ بهالكٍ مَغْمومِ
فانْعَي أباكِ إلى نسائهِ واقْعُدي ... في مأتمٍ يُبْكي العيونَ وقومي
قولي لهُ يا غائباً لا يُرْتجى ... حتى القيامةِ مُخْبِراً بقدومي
يا عينِ كنتِ وما أُكَلِّفُكِ البُكا ... حتى ابتُليتِ فإنْ صبرْتِ فدومي

---

(١) المخنثة: المرأة اللينة المتكسرة في مشيتها.
(٢) الأغاني ٢٣ / ٧٤.
(٣) المحاسن والمساوىء ص٥٣٢.
(٤) المحاسن والمساوىء ص٥٣٢ ـ ٥٣٣، والديوان ق١٤٣.

من رثاهُ بعد موته :

ولا نطمع في أن نجد شعراً في رثاء ابن الزيات، وهيهات أن تجد فيمن تغير عليه الزمان، وزال عهده، وذهب مجده، أن يذكره الناس بخير، أما أن تنطلق الألسن في هجائه والتشفي به والتقرب إلى السلطان بهجائه فهذا أمر يكاد يكون بدهياً، لأن الناس إنما تمدح وترثي طمعاً في مال أو جاه ، وقلما يكون ذلك وفاءً وعرفاناً بالجميل، وذكراً للأيادي البيض، فإذا ما اجتمعت هذه الأمور ، بالإضافة إلى ما يخشاه الناس من بطش السلطان وسطوة أعدائه، فإن الذاكرين بالخير قليل، فهم بين جاحد وخائف، ولذلك فقد وقعت أبيات، قيل إن الحسن بن وهب قالها، ولكنه خشي من السلطان وبطانته، فأنكر أن تكون له، ولكنها عرفت له لأنها وجدت مكتوبة بخطه، والأبيات هي :(١)

يكادُ القلبُ من جَزَعٍ يطيرُ إذا ما قيلَ قد قُتِلَ الوزيرُ

وفيها يعاتب الخليفة بأنه فرَّط في رجلٍ كُفءٍ مخلص، هو ركن من أركان الدولة وسند لها :

أميرَ المؤمنينَ هدمْتَ ركْناً عليهِ رحاكُمُ كانتْ تدورُ
سيبلى المُلْكُ من جَزَعٍ عليهِ ويخربُ حين تضطربُ الأمورُ
فمهلاً يا بني العباسِ مهلاً فقد كُوِيَتْ بفعلكُمُ الصدورُ
إلى كم تنكبونَ الناسَ ظُلْماً لكم في كلِّ ملحمةٍ عقيرُ

ويذكر أفعال ابن الزيات وإخلاصه وسجاياه :

جزيتم ناصراً لكمُ المنايا وليس كذلكمْ يُجْزى النصيرُ
فكنتم سائقاً أرسى إليكم وذلك من فِعالِكُمُ شهيرُ
وكأنَّ صلاحَهُ لو شِئْتموهُ قريباً لا يحاولُهُ البصيرُ
كأنَّ اللهَ صيَّركم ملوكاً لئلا تعدلوا ولأنْ تجوروا

---

(١) الأغاني ٢٣ / ٧٩ ـ ٨٠ .

وفي ديوان علي بن الجهم أبيات ذكر فيها ابن الزيات، في سياق العبرة والعظة وجعله من أهل المروءات :(١)

قلتُ لها حينَ أكثرتْ عَذَلي ... ويحكِ أزْرَتْ بنا المروءاتُ

قالتْ فأينَ الأملاكُ قلتُ لها ... لا تسألي عنهمُ فقد ماتوا(٢)

قالتْ ولِمْ ذاكَ قلتُ فاعتبري ... هذا وزيرُ الإمامِ زيَّاتُ

---

(١) ديوان علي بن الجهم ص ٩٨، وتنسب للصولي أيضاً في ديوانه في الطرائف الأدبية ص١٥٦، ووفيات الأعيان ٣ / ٥٦ .

(٢) في ديوان الصولي ووفيات الأعيان : (قالت فأين السراة) .